من المنطلق

إحياء فقه الدعوة

الكتاب الثالث

الرقائق

محمد أحمد الراشد

صورة الغلاف

«حصار الأمل»

لوحة من الفن التجريدي الإسلامي

مستوحاة من تمثيل النبي صلى الله عليه وسلم للإنسان والأمل، لمّا خطّ على الأرض مربعاً بداخله خط طويل، مع خطوط خارجة عنه، وهو الحديث الوارد في الفصل السابع من هذا الكتاب.

وقد صمّم اللوحة واختار ألوانها
محمد أحمد الراشد
وأعانه في تنفيذ الألوان
الفنان منوچهر بوب

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

إنتقاء وتجميع العناصر المتميزة بالذكاء والشجاعة من الشباب، ثم تربيتها تربية عميقة شاملة صلبة :ركنان أساسيان في خُطة الحركة الإسلامية .

وإنه- كما يقول أبو الحسن النَّدوي -:(لا بد من إنتاج الرجال الذين يقومون بالدعوة، ويديرون دفّتها، ويربون الرجال، ويملأون كل فراغ . وكل حركة أو دعوة أو مؤسسة مهما كانت قوية أو غنية في الرجال فإنها معرضة للخطر، وإنها لا تلبث أن ينقرض رجالها واحداً إثر آخر، وتفلس في يوم من الأيام في الرجال)[1].

❑ على الحركة الإسلامية ان تتفرّس في نفسها

ولكن هذه التربية ليست اكتيال جزاف، فإن أخص خصائصها أنها تلبي نداءات الحاجات المرحلية، وتعالج الواقع . وفي كل أدب أرشد إليه الإسلام خير، ولكن طاقة ذي النية الصالحة محدودة، فوجب إقرار المفاضلة بين أجزاء هذا الخير، والبدء بما هو أفضل، وبما يسد حاجة المرحلة من بعد تشخيص النقص .

ذلكم هو الذي يوجب من بعدُ أن تتفرس الحركة الإسلامية الحاضرة في نفسها فراسة خبرة، في خلوة تأمل، فتحدّد نقصَها، وتحصي رصيدها، لَيأذن الله أن تصدق فِرَاستُها الأخرى في الناس، وتحكم

(١) مذكرات سائح في العالم العربي/ ٧٩.

طريقها في هذا التصارع العنيف، كما قال الزاهد الحكيم سمنون- رحمه الله - حين سُئل عن الفِراسة وحقيقتها، فأجاب :

(إن من تفرّس في نفسه فعرفها : صحت له الفِراسة في غيره وأحكمها)[٢].

وإنه لمعنى رفيع يكشف عنه سمنون في هذه الحروف القليلة، ويخولنا إياه، لنتخذه منطلقاً لفراسة نقدية نصف فيها أنفسنا ، ونحدد نقصنا، ثم تحويل الفِراسة إلى دراسة نسلكها ينابيع في صفوف الدعاة بإذن الله، فيخرج بها وعاة، يصدقون بالصدق الذي جاءهم عن ربه، ويحفظون أمره.

ولقد شهد التاريخ القريب لأجزاء الحركة بُعداً عن الموازنة في أساليب التكوين والتربية، وطغياناً في جوانب على جوانب أخرى، فترى في منطقة غَلَبة الجانب التعبّدي وتزكية النفس، وفي أُخرى ترفاً فكرياً، وفي ثالثة ولعاً بالمشاركة في أحداث السياسة اليومية، فاختلفت الصياغات .

ومن حيثيات كثيرة يعرفها أهل المعاناة :بدأ يتضح الخط التربوي المتكامل الموزون، المستدرِك للنقص، وتحدّدت ملامحه في غرس معاني:

- الحرص على الصلاة، وتثبيت العقيدة.
- والالتزام بأدب الأُخُوّة.
- والفرح بالبذل، والتعب اليومي .
- والشوق إلى الجهاد والإستشهاد، من دون تهور.
- والإنضباط بالطاعة .
- والتقلّل من الدنيا، وطلب الخفّة .
- وترقّب الموت، ونسيان الأملَ الدنيوي .
- وحب الله تعالى، في رجاء يضبطه خوف .
- ومفاصلة الذين كفروا، والذين نافقوا.

---

(٢)تاريخ بغداد للخطيب ٩/ ٢٣٦.

● والصبر على المحن .

فمن تحقّق في هذه المعاني فهو الصلب الذي يصح أن يعتمد ضمن القاعدة الصلبة للحركة الإسلامية .

وهذه الفصول مخصصة لبيان بعض هذه المعاني والتذكير بها، من خلال مواعظ ترقق القلب، وتعين النفس على اكتشاف الطريق الصحيح، وتؤنسها إذ هي ماضية فيه، فإن مدار حركات هذه الحياة متصل بمحور النفس المترددة بين التقوى والفجور، إن صَلُحت :كان لها ظل وارف يَهَبُ الأمن لصاحبها، ومتّسعاً للآخرين، في امتداد بمقدار هذا الصلاح، وإن فسدت :كان ثَمَّ اضطراب، وجحيم من القلق .

فمن أجل التنبيه على جمال النفس المؤمنة والحث على الإقتداء بسَمْتها :جاء هذا الكتاب .

ويعجبني جداً وصف الشاعر التونسي أحمد المختار الوزير للنفس البريئة، ورمز لها رمزاً: جعلها كأنها فَراشة، واقترب كل الإقتراب من إدراك كمال الحقيقة، تسوقه فطرته، إلا أنه لم يمسكها، وفاتَه أنه يصف النفس المؤمنة بأبلغ مما وصفها غيره...

إنها تأسره إذ هي :

ساكنة، في صَمتها، أبْيَنُ ممّن يَنْطقُ

هكذا هي السيماء الإيمانية :وَداعة، وتفكّر، وتأملَ هادىء، في إقلال من الكلام، وبُعد عن اللغو، ولكن تحوطها هيبة مؤثرة، وجمال بليغ مفصِح.

وإن وَنَتْ وَقْفَتُها :أعْجَلَها المنطلَقُ

فالوقفات سُنة من سنن الحياة، وقدر مقدور على البشر، إلا أنها عند المؤمن لن تكون استرخاءً وغفلةً وتمادياً أبداً، بل هي تعتري برهة، ثم تجليها محفّزات كامنة، من رصيد ذاتي مجموع، أو تراث حكمة مركوز.

لكن الشياطين تعترض، تحاول عرقلة هذا المنطلق، توهم صاحبه،

وتضع العوائق الثقال في صور من الزينة، لها بهرج، وتألق، تغش النفس الهائمة، ولكن النفس الملهَمة، التي أُلهمت إيمانَها: ترى ما وراء ذلك من حقائق تفضح ما خفي من كبرياء مفتعلة، أو حسد موسوِس، أو صدارة متأخرة، أو حب زيادة مال زائل .

فذلك هو حَوم الفراشة حول ومضات صورتها على سطح البحيرة .

أو هي تجربة النفس المؤمنة . . . .

لكَـــم رأت خـيالَهـا، ماجَ به المُنْبَثَقُ

كأنه النجـــمُ يرفُّ، والمياه الأفقُ

فحــوَّمَتْ، ترنو، تَودّ لو به تَعـــتَلقُ

وأوشكـتْ، لو لـم تُفق، يقضي عليها الغرَقُ

لكنــها مؤمنةٌ، هيهـات، لا تســتحمقُ

بين الضـــلال والهدى: يبدو لها المُفـــتَرَقُ

نعم، هكذا : المفترَق واضح، والإقتراب يفضح الصورة، ويزيد الوضوح وضوحاً، ويبيِّن انَّ ما ظنته النفس تألقاً من على بُعْدٍ إن هو إلا اهتزاز .

ولكن كيف النجاة مع هذا الإقترابْ من مَوجةٍ عالية تَفجأ، فتترك بَلَلا يُثْقِل، إن لم يكن الغرق المتلف؟

من هنا وجبت الموعظة، وانبغى التحذير، في كلام كمثل هذه الرقائق، كي لا تهبط النفس المؤمنة، إذ آمنت، بشيء من رَذاذ الإقتراب، بل حياتها في السمو، ونجاتها في العلو .

إنها قطعة من البيان نادرة أتى بها الشاعر، وأهداها للناشئة، لكنها حكمة المنتهين .

وليس ذلك بمستغرب في عُرف الحكمة الإسلامية، فإنها أبدية

الصواب، ليس لها مرحلة متطورة جاءت من بعد سذاجة وتخلُّف، لكنها كما تصلح انتهاء: كانت تصلح توسطاً، وصلحت ابتداء، مع بدء الحياة البشرية، وآية ذلك أن التوحيد أُوحي إلى آدم عليه السلام، بدءَ الحياة، وكان نبياً، وأُلهمت التقوى إلى هابيل، فكفَّ يدَه.

فانظر إشراقة القلب ولطف الإحساس في هذا الرمز المفصح عن طبائع النفس الزكية، وانظر بمقابله غِلظ حِجاب قلب شاعرٍ مُلحد يدعو إلى البهيمية . . .

إنما العيشُ في بهَيمةِ اللذة ... لا ما يقوله الفلسفي

حكمُ كأس المنونِ أن يتساوى ... في حساها الغبي والألمعي

ويصير الغبي تحت ثرى الأر ... ض كما صار تحتها اللوذعي

فسلِ الأرضَ عنهما إن أزا ... لَ الشكَّ والشبهةَ السؤالُ الخفي

وواضح هنا أن هذا الملحد أشار إلى أن المعاني الحقة هي قول الفلسفي، لا قول الواعظ المسلم، ليتجنب في ظنه ما قد يكون من اتهامه بالمروق عن الدين.

قال أبو حيان التوحيدي: سمع أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني المنطقي هذه الأبيات فقال:

(هذا النمط مفسدة للشباب الأغرار، الذين ليست لهم بصيرة في الأمور، وهم عبيد الإحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة، والإعتقادات الرديئة بتلقين قرناء السوء، وقائل هذا قد عاندَ الدين، وخلع رِبقة الحياء، وأفصح عن الفساد، وصدّ عن الحكمة، وقدح بزَنْد الشُبهةَ في النفوس الضعيفة، والعقول الخفيفة.

يا مسكين: أمِن أجل أن الصالح والطالح والعالم والجاهل صاروا

تحت التراب: يتساوون في العاقبة؟

أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد، فلما بلغوا المقصد: نزل كل واحد من مكان كان معداً له، وتُلقّي بغير ما يُلقى به صاحبه؟

أما دخل قوم داراً فأُجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها وقوبل هذا بشيء وهذا بشيء آخر؟

ثم تقول: سلِ الأرض عنهما!!

قد سألنا وخبّرتنا أنها ضمّت أجسادهم وجثثهم وأبدانهم، لا كفرهم وإيمانهم، ولا أنسابهم وأحسابهم، ولا حكمتهم وسفههم، ولا طاعتهم ومعصيتهم، ولا أقوالهم وأفعالهم، ولا يقينهم وشكهم، ولا زهادتهم وتسبيحهم، ولا معرفتهم وتوحيدهم، ولا خيرهم وشرهم، ولا جورهم وعدلهم).

وفي مثل هاتين القطعتين من الشعر، وفي التعقيب الذي عليهما، تتضح بعض جوانب المعركة الدائمة بين الإيمان وصور الضلال.

وفي مثل هذا الكتاب مواعظ، وإخبات، وزيادة يقين...

تسبيح يشد الملك

١

دعوة تريد أن تستقيم إلى الله
فعليها أن تَدْلُفَ من باب الإستقامة إذن. وبابها المحراب.
وهكذا، فإنَّ على الدعوة الإسلامية في كل وقت أن تبدأ عملها من المسجد، فتصلح العقيدة، وتعلم دعاتها أدب التعامل الإسلامي، وبذلك تسقط تلقائياً كل المقاييس الأُخرى في التفاضل، من جودة الكتابة، وبلاغة اللسان، وبهرج الشهادات الجامعية .
وإنما جماع الخير في ارتياد المسجد، وذخيرة المسجد نعم زاد الإنطلاق .ولقد أحصاها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقال:
(من أدام الإختلاف إلى المسجد أصاب ثماني خصال:
آيــة مُحْـــكَمَــة
وأخــاً مــُـستفـــاداً
وعلماً مُستـــــطرَفاً
ورحـــمة منتـــظرة
وكلمة تدله على هدى،أو تردعه عن ردى.
وترك الذنوب حياء، أو خشية)[1]
(فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الإجتماع. هو فكر واحد لكل الرؤوس، ومن ثم فهو

(١)عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/٣.

حل واحد لكل المشاكل . وكما يُشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله)(٢).

(فما المسجد بناءً ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيح للعالَم الذي يموج من حوله ويضطرب، فإن في الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها، وهذه كلها يمحوها المسجد، إذ يجتمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر، وبراءة القلب، وروحانية النفس، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة مسبغة على حدودٌ جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذي يُسمّى الوضوء، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخول المسجد)(٣).

ولقد تفاعل الموفقون مع هذه الأعطيات التي تمنحهم إياها مساجدهم، فولعوا بها، وشدّوا إليها شداً أنطق الشاعر بالصدق فوصفهم بأنهم:

يمشون نحو بيــــوت الله إذ سمعوا
(الله أكبر)في شوق وفي جــــذَل

أرواحهم خشـــــعت لله في أدب
قلوبهم من جلال الله في وَجـــــل

نجواهم: ربنا جئـــــناك طائعــة
نفوسنا ، وعصينا خادع الأمــــل

إذا سجى الليــل قاموه وأعينــــهم
من خشية الله مثل الجائد الهـــطِل

هم الرجال فلا يلهيــــــهمْ لَعِبٌ
عن الصَلاة، ولا أكذوبة الكَســـل (٤)

---

(٢) (٣)للرافعي في وحي القلم ١/٣٥٧-٣٥٨.

(٤) لياسين خليل في مجلة (التربية الاسلامية) العراقية ٥/٦٠٠

ثُمَّ مابرح أئمة الموفقين يُلحون في التوصية بذلك، ابتداء بالصَّدرالأول، كمثل عبد الله بن المبارك حين يقول:

إغتنم ركعتين زلفى إلى اللــــــه
إذا كنت فارغاً مستريحــــــــــا
وإذا هَمَمــــــــْت بالنطق بالـــبا
طل فاجعل مكانه تسبيـــــــــحا (٥)

وانتهاء بقادة الدعوة في هذا القرن، كمثل الإمام البنا حين يوصي أن (أيُّها الأخُ العزيز:

أمامك كل يوم لحظة بالغداة، ولحظة بالعشي، ولحظة في السحر، تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة. وأمامك يوم الجمعة وليلتها تستطيع أن تملأ فيها يديك وقلبك وروحك بالفيض الهاطل من رحمة الله على عباده، وأمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات وليالي القربات التي وَجَّهك إليها كتابك الكريم، ورسولك العظيم، فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين، ومن العاملين لا من الخاملين، واغتنم الوقت، فالوقت كالسيف، ودع التسويف فلا أضر منه)(٦).

وكمثل الإمام بديع الزمان سعيد النورسي حين يخاطبك ويقول:

(رُكِّبْتَ من القصور والفقر والعجز والإحتياج، لتنظر بمرصاد قصورك إلى سرادقات كماله سبحانه، وبمقياس فقرك إلى درجات غناه ورحمته، وبميزان عجزك إلى قدرته وكبريائه، ومن تنوع احتياجك إلى أنواع نعمه وإحسانه.

فغاية فطرتك هي العبودية.

والعبودية أن تعلن عند باب رحمته قصورك بـ(استغفر الله) و(سبحان الله).

---

(٥)طبقات الشافعية للسبكي١/ ٢٨٦.

(٦)مجلة (الدعوة)في دورتها الأولى عدد ٨ سنة ١٩٥١.

وفقرك بـ(حسبنا الله)وبـ(الحمد لله)، وبالسؤال .
وعجزك بـ(لا حول ولا قوة إلابالله)وبـ(الله أكبر)، وباستمداد.
فَتُظْهِرَ بمراتب عبوديتك جمال ربوبيته)[٧].

وكمثل الإمام المودودي-رحمه الله-حين يتحدث عن بعث الرسل عليهم السلام لتحقيق غاية العبودية في الأرض ويقول:

(أنظروا قليلاً في ما تحرى النبي صلى الله عليه وسلم من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية، فقد قام بدعوة الناس-أولاً وقبل كل شيء-إلى الإيمان، وأحكمه في قلوبهم، وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها، ثم نشّأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقاً لمقتضيات هذا الإيمان تدرجاً بالطاعة العملية - أي الإسلام- والطهارة الخلقية - أي التقوى - وحب الله والولاء له- أي الإحسان. ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الإلهي المنزل من الرب تعالى .) (وبعد كل ذلك أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين من الآداب والعادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس، وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة . وكأنني به فَتَنَ الذهبَ ونقّاه من الأوساخ والأقذار أولاً، ثم طبع عليه بطابع الدينار، ودرَّب المقاتلين أولاً، ثم كساهم زي القتال. وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما)[٨].

❑ أجب نبيك صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من تطهّر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من

(٧)المثنوي العربي لبديع الزمان نورسي/ ٢٨٣.
(٨)الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية / ٧٢.

فـرائض الله: كـانت خطوتاه إحـداهمـا تحطُّ خطيـئـة، والأخـرى ترفع درجة).[9]

وقال: (من غدا إلى المسجد وراح أعَدَّ الله له نُزُلَهُ من الجنة كلما غدا أو راح)[10].

وقال: (أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة حتى يصليهـا مع الإمـام أعظم أجـراً من الذي يصلي ثم ينام)[11].

وعن جـرير رضي الله عنه قـال: (بايعتُ رسـولَ الله صلى الله عليـه وسلم على إقام الصلاة)[12].

وسأله ابن مسـعود: أي العـمل أحب إلى الله؟ قـال: (الصـلاة على وقتها)[13].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(ما من امرىء مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة، وكذلك الدهر كله)[14].

وكانت آخر ابتسامة للنبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا: ابتسامته للصلاة، وذلك لما كشف ستر الحُجْرة يوم الإثنين فرأى أبابكر يؤم الصفوف.

وحَثّ على صلاة الفجر وصلاة العشاء فقال:

(من صلى البَرْدَين: دخل الجنة)[15]

وقال- وقد نظر إلى البدر-:

(إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن

---

(٩) صحيح مسلم ٢/١٣١.

(١٠) (١١) صحيح البخاري ١/١٥٧-١٥٩.

(١٢) (١٣) صحيح البخاري أيضاً.

(١٤) صحيح مسلم ١/١٤٢.

(١٥) صحيح البخاري ١/١٣٧.

استطعتم ان لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا.

ثم قرأ: "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب")[16].

وقال : (الذي تفوته صلاة العصر: كأنما وُتِرَ أهلَه وماله).

أي فقدهما، وفي لفظ :(من ترك صلاة العصر فقد حَبِط عملُه)[17].

فأنت أيها الداعية ما بين ترهيب ينذرك النبي صلى الله عليه وسلم فيه حبوط العمل، وترغيب يشوقك فيه إلى قصور الجنة ورؤية الله فيها، فأجب، وإنه لثمن يُغري ويطمع، ويُحرص عليه، قبل الكساد، وكن عندَ حسن ظن الفُضَيل بن عياض، فإنه تحدى وقال:(ما حُلّيت الجنةُ لأمة ما حُليت لهذه الأمة، ثم لا ترى لها عاشقاً).

عاشقاً يخرج من أجلها في البَردين، وقل له :إني أنا العاشق .

فإن وجدتَ من نفسك ثقلاً وتكاسلاً فهناك مخاطبة لطيفة يمكن لك أن تخاطب بها نفسك فتقول :هَب أنك من العسكريين، أو من عمال المخابز، أو الصيادين، أو...، أما كان يجب عليك التبكير في الإستيقاظ قبل الموظف والطالب ، طاعة للنظام العسكري أو تنافساً في طلب الرزق؟فالله سبحانه أحق أن يطاع، وصلاة الفجر أحق أن ينافس فيها . فبمثل هذه المخاطبة لنفسك يحصل الحث لها إن شاء الله إن تراخت،واستأنست بالنوم.

وإذا ألمت بذنب أو خطأ فاستدرك بالركوع، فإن داود عليه السلام لما جاءه الخصم يختصمان في النعاج انتبه واستدرك، ووصف اللهُ تعالى انتباهته فقال:(وظن داود أنما فتناه، فاستغفر ربه، وخرَّ راكعاً، وأناب، فغفرنا له ذلك)[18]. فجعل الإستغفار والركوع طريقه، يعلم بذلك الدعاة أن يركعوا.

---

(١٦) (١٧) صحيح البخاري ١/ ١٣٧.

(١٨)سورة ص آية ٢٤.

❑ حرص الأولين على الصلاة

وكان السلف الصالح يستحبون الأناة في كل شيء، إلا في الصلاة، فقد قيل للأحنف بن قيس رضي الله عنه: (إنّ فيك أَنَاةً شديدة) فقال: (قد عرفتُ من نفسي عَجَلة في صلاتي إذا حَضَرَتْ حتى أُصليها)[١٩].

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له: (الصَفّي)، لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة[٢٠].

ومثله: إبراهيم بن ميمون المَرْوَزِيُّ، أحد الدعاة المحدثين الثقات من أصحاب عطاء بن أبي رَباح، وكانت مهنته الصياغة وطَرق الذهب والفضة . قالوا: (كان فقيهاً فاضلاً، منَ الأمَّارين بالمعروف. وقال ابن مُعين: كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء: لم يردها)[٢١].

وقيل لكَثير بن عُبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قَطُّ وقد أمَّ أهل حمص ستين سَنة كاملة، فقال: (ما دخلت من باب المسجد قَطّ وفي نفسيَ غير الله)[٢٢].

وقال قاضي قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي، وهو من ذُرية ابن قدامة صاحب كتاب المُغني: (لم أُصَلِّ الفريضة قَط منفرداً إلا مرتين، وكأني لم أُصلهما قط)[٢٣]، مع أنه قارب التسعين.

والداعية السعيد من يتأمل هذا ويقتدي.

❑ دعوة تتعلم من داود

وكان داود عليه السلام يُسَبِّحُ بالعَشيّ والإشراق، فسخر الله تعالى الجبالَ يُسبِّحنَ معه، وقال: (إنا سَخّرنا الجبَالَ معه يُسبِّحنَ بالعَشِي والإشراق)، فوهبه اللّه هِبة عظمى ذكرها فقال: (وشددنا مُلْكَه)[٢٤].

---

(١٩) طبقات ابن سعد٧/ ٩٦.

(٢٠) (٢١) (٢٢) تهذيب التهذيب ١/ ١٧٣-٤٤٧، ٨/ ٤٢٤.

(٢٣) ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٦٥.

(٢٤) سورة ص آية ٢٠ .

ودعوة تدعي إنها إسلامية لا يُشَدُّ مُلكُها اليوم وتَغلِب ما لم يُسَبِّح رجالُها بالعَشيِّ والإشراق.

وإن التواصي بالصلاة لَحسنة نُؤَدِّيها يزيد الله لنا فيها حُسناً، ولا بُد لنا أن نجعلها كلمة باقية في عقبنا من أجيال الناشئة الجدد، فإن لم نفعل، فإن عقد الدعوة سينفرط -لا سمح الله- انفراطاً ما له من فَواق.

سجود المحراب، واستغفار الأسحار، ودموع المناجاة: سيماء يحتكرها المؤمنون.

ولئن توهم الدنيوي جنّاته في الدينار، والنساء، والقصر المنيف، فإن:

❑ جنة المؤمن في محرابه [1]

ولقد منَّ الله على الناس بكثير من المباح الحلال يُفَنِّد الرهبانية، ولكن المؤمن له لذة كلما توجه إلى ربه بصفاء روح، تتضاءل بجانبها لذة المباح، فيهجر الكثير منه حذراً من كَدَر يعكِّر الصفاء الذي هو فيه.

جرَّب ذلك المؤمنون قديماً، زمن العيش البسيط، وجربه المؤمنون اليوم، زمن المدنية المعقدة.

بل إنَّ الصلاة في يوم هذه المدنية لأظهرُ في إضفائها السرور، فبينما يطيل التعقيد على الإنسان حياته الحاضرة، فيسأم، ويمل، ويضجر، تختصرها الصلاة إلى بضع ساعات فحسب، فيعيش في اطمئنان، وراحة بال، ولئن كان لنظرية آينشتين في نسبية الوقت نصيب من الصحة، فإن في الصلاة هذا النصيب، كما يشرحه مصطفى صادقْ الرافعي ويقول:

(يا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات، لتبقى الروح أبداً إمَّا متصلة أو مهيأة لتتصل، ولن يعجز أضعف الناس مع روح الدين أن يملك نفسه، أنَّه متوجه بعدها إلى ربه،

(١) شطر لوليد في مجلة التربية الإسلامية ٧/ ٦٣٧.

فيخاف أن يقف بين يديه مخطئاً أو آثماً، ثم هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى، وأنها بضع ساعات كذلك، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها في عمر على صيغة واحدة لا يتبدل ولا يتغير، كأنه بجملته - مهما طال -عمل بضع ساعات).[٢]

فطول الحياة نسبي.

هو طويل جداً، مخيف مظلم........ للجاهلي.

وهو قصير، هين منير ....للمصلي.

وحياة الجاهلي: ركود مستمر.

وحياة المصلي: حركة، تزيد صواباً، أو تستدرك اعوجاجاً.

وإنها (الله أكبر)تنهي هذا الركود، وتؤسس الحركة.

(الله أكبر)!

بين ساعات وساعات من اليوم تُرسِل الحياةُ في هذه الكلمة نداءها تهتف:

(أيها المؤمن: إن كنت أصبت في الساعات التي مضت، فاجتهد للساعات التي تتلو، وإن كنت أخطأت فكفِّر، وامح ساعة بساعة)[٣].

وأظهَرُ حركة يولدها التكبير: حركة التمييز والفرقان، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

فإنك إن قلت: (إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولاالضالين):

استشعرت في كل ركعة طائفة من هذه الأصناف الثلاثة، وتخصص كل ركعة لمن ظهر منهم في زمن واحد، أو بلد واحد، فتجول في ركعات يومك بلاد الإسلام أجمع، وتستعرض تاريخ الإسلام أجمع.

ففي ركعة تذكر النبيَّ صلى الله عليه وسلم وصحبه الأطهار رضي الله عنهم مثلاً لمن أنعم الله عليهم، وتذكر أبا جهل ومسيلمة مثلاً

---

(٢) (٣) وحي القلم ١/ ٣٥٩-٣٦٤.

للمغضوب عليهم والضالين.

وفي ركعة أخرى تذكر هوداً وصالحاً مثلاً ممن أنعم الله عليهم، عليهم السلام، وعاداً وثمود من الهالكين.

وفي ركعة أخرى تذكر الحسنَ البصري وابنَ سيرين وابنَ المسيَّب ممن أنعم الله عليهم، وأهل الردّة، والجهم بن صفوان، والجعْدَ بن درهم من المتخبطين.

وفي أخرى تذكر الإمام أحمد بن حنبل ورهطه من المُحَدِّثين الموفقين، وبشراً المريسي وابن دُواد من الظالمين.

وفي أخرى تذكر ابنَ تيمية وابن القيم وابن الجوزي من المصلحين، وأصحابَ وحدةَ الوجود والفناء الموهوم والشطح والإبتداع من المُدَلِّسين.

وفي أخرى تذكر الإمام البنا وعَودة وسيِّد، وثباتهم أمام الطغاة المتجبرين.

وبذلك تعقل صلاتك، والمرء ليس له من صلاته إلا ما عقل منها، وتجدد عهدك مع أجيال المؤمنين، وتنبذ المفسدين، وتلك هي حركة الإيمان، فإن الإيمان الحق ما أخذ منك الولاء، وتَرَكَكَ على المفاصلة.

❑ رجال مدرسة الليل

ولكن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون.

فمن ثَم كانت مدرسة الليل.

وكان ترغيب الله للمؤمنين أن يجددوا سمت الذين (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون).

وإذا انتصف الليل، في القرون الأولى، كانت أصوات المؤذنين ترتفع تنادي:

يا رجـــال الليل جِــــدُّوا
رُبَّ صـــوت لا يُـــرَدُّ
ما يقــــوم الليــلَ إلا
مَـن لــه عــزم وجِـــدُّ

وإنها حقاً لمدرسة، فيها وحدها يستطيع رجالها أن يُذكوا شعلة حماستهم، وينشروا النور في الأرجاء التي لفتها ظلمات الجاهلية.

وإنها تجربة إقبال يوجزها فيقول:

نائحٌ والليلُ ســــــاجٍ سادل
يهجعُ الناسُ ودمعي هاطــــــل

تصطلي روحي بحــــــزن وألمْ
ورد "يا قيوم" أنــــــسي في الظُلَمْ

أنا كالشمع دمــــــوعي غُسُلي
في ظلام الليــــل أذكي شُــــعَلي

سَحفل الناس بنوري يُشــــــرقُ
أنشرُ النورَ ونفســـــي أحـــرق (٤)

وإن دعوة الإسلام اليوم لا تعتلي حتى يُذكي دعاتُها شُعلهم بليل، ولا تشرق أنوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين ما لم تلهج بـ(يا قَيُّوم).

ما نقول هذا أول مرة، وإنما هي وصية الإمام البنا حين خاطب الدعاة فقال:

(دقائق الليل غالية، فلا تُرْخصُوها بالغفلة)[٥].

أفَعيينا أن نعيد السمتَ الأول، أم غرَّنَا اجتهاد في التساهل والتسيب والكسل جديد ؟

إن القول لدى الله لا يُبَدَّلُ، ولكنا أَرْخَصْنَا الدَّقائقَ الغالية بالغفلة، فَثَقُلَ المَغْرَمُ، ولم يجعل الله لنا من أَمْرِنَا يُسْرا.

إنَّ انتصار الدعوة لا يكمن في كثرة الرَّقِّ المنشور، بل برَجْعَة نَصُوحٍ إلى العُرف الأول، ومتى ما صفت القلوب بتوبة، ووعت هذا الكلام أذن واعية: كانت تحلة الورطة الحاضرة التي سببتها الغفلة المتواصلة.

---

(٤)ديوان الأسرار والرموز/ ٧٩.

(٥)مجلة (الدعوة)في دورتها القديمة عدد ٦٣ .

ذلك شرط لا بد منه.

وكان النصر حُجب عنا لأننا نادينا من وراء الحُجُرات، وجهرنا رافعين أصواتنا، نوجب على الله لنا هذا النصر بإدلال، نبيعُه ونُثبت لنا حقاً عاجلاً في الثمن من دون أن نقدم بين يدي بيعنا همساً في الأسحار، ولا الدَّمعَ المدرار، وإنما النصر هبة محضة، يقر الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل في الحَياة الدنيا، ولايلت الآخَرين المحْصرين من ثمنهم في الآخرة شيئاً، ويوقع أجرهم عليه.

إنّ تعلّم الإخلاص، وفضح الأمل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل، كما يقول وليد، وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه في النفوس.

قال، والحق ما قال:

يا ليلُ قيامُك؛ مدرسةٌ
فيها القرآن يُدَرّسني
معنى الإخلاصَ فألزمه
نهجاً بالجنة يُجلسُني
ويُبَصِّرني كيف الدنيا
بالأمل الكاذب تغمسني
مثل الحرَباء تَلوُّنها
بالإثم تحاول تطمسني
فأباعدها وأعاندها
وأراقبها تتهجَّسني
فأشد القلبَ بخالقه
والذكرُ الدائمُ يحرسُني (٦)

وأكثر من هذا، فإنَّ من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي

(٦) أغاني المعركة /٣٨.

بعده إلى ما شاء الله، والمتخلف عنها يابس قاس تقسو قلوب الناظرين إليه، والدليل عند بِشر بن الحارث الحافي منذ القديم، شاهده، وأرشدك إليه، فقال:

(بحسْبك أن قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قوماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم).

فلم كان ذلك إن لم يكن ليل الأولين يقظة، وليل غيرهم نوما؟ونهار الأولين جِدًا، ونهار الآخرين شهوة؟

❑ أتسبقك الحمامة؟

وإنه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبي سهل الصُعلوكي، يُظهره تأنيبه لنفسه في قوله:

أنام على سهو وتبكي الحمـــائمُ
وليس لها جـــُرم ومني الجرائـــــمُ

كذبتُ لعمرو الله لو كنتُ عــاقلا
لما سبقتنـــــي بالبكــاء الحمـــائم (٧)

فإن الذنب لا يغسل إلا بدمع، والشجاعة تُسقى بدموع الليل، وما عرف تاريخُ الإسلام رجالَه إلا كذلك، ولم يقل ابن القَيِّم باطلاً في وصفه لهم بأنهم:

يحيـــون ليلهم بطاعـة ربهـــم
بتلاوة ، وتضــرع، وســـؤالِ

وعيونهم تجري بفيض دموعهـــم
مثل انهمال الوابـــل الهـــطّال

في الليل رهبان، وعند جهادهـــم
لعدوهم من أشجـــــع الأبطال

بوجوههم أثر السجود لربهـــــم
وبها أشـــــــعة نوره المتلالي (٨)

(٧)طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٧١.

(٨)إغاثة اللهفان/ ٢٥٥.

وسأل عبد الوهاب عزامُ الليلَ عن أروع أسراره، فأبان جوابه عن إصابة المؤمنين والمذنبين في تحريهم إياه، واستمعْ لتحاورهما:

قلتُ للــيل :كم بصـــدرك ســرٌ
انبئني مَا لـــــــــروع الأسرار؟
قال:ما ضاء في ظـــــلامي سرٌ
كدموعَ المنيـــــــب في الأسحار (٩)

أفترى المؤمنين إلا مصدق بجواب الليل، فهو مسارع مستبق؟
أم ترى أهلَ البلاغة إلا في إذاعة لما قال ؟يَستمْلون الناس:

فاز من سبّـــــح والناسُ هجوع
يدفن الرغبةَ ما بين الضـــــلوعْ
ويُغَشّيه سكون وخـــــــشوع
ذاكراً لله والدمـــــــع هَموع
سوف يغدو ذلك الدمـــع شموع
لتضيء الدرب يوم المحـــــشر
سجــدةٌ للــــه عنـد السَّـــحَر (١٠)

ويلقنون المذنبين المخطئين طريقَ الجنة، فيَستمْلون المسرفَ في أخرى أن:

عُد إلى الله بقلـــب خاشـــــع
وادعه ليلاً بـــطرْف دامـــــــع
يتولأك بعـــــفو واســــــع
ويُبَـدِّلْ كـــل تلك الســـيئات
حســنات أجــرها لـــن ينفـــدا

(٩)ديوان المثاني / ٣٥.
(١٠)لوليد، في مجلةالتربية الإسلامية ٧/ ٦٣٦.

كل هذا العفو للعبـــــد المنيبِ
سابغاً من خالق الكـــون الرحيبْ
للذي تاب إليـــــه مـــن قريبْ[11].

٣ الابتداء

كل ممارس للعمل التربوي الإسلامي الحركي يلحظ ولا بد ظاهرة سقوط البعض وتراجعهم، فأنت ترى داعية سالكاً مع السالكين، وتظن أنه سيثبت، ولكنه يُخَيِّب ظنّك أثناء الطريق، بأن تصدمه رهبة أو رغبة، أو يستأسر لنداء نفس وهوى، فيغتر، ويستولي عليه التيه إدلالاً وامتناناً، فيصيبه الفتور.

وربما استعصى تعليل مثل هذه الظاهرة حيناً، ولكنّ تفرُّسنا في أنفسنا، والتنقيب عن الفقه التربوي في آثار رجال التربية الأقدمين: بدأ يرينا ملامح من التفسير لها، إن وُعيت حق وعيها لكان فيها - بإذن الله -ثبات القلوب، ولَوُقِينَا زلل الأقدامَ بعد ثبوتها .

❑ هو صفاء الابتداء

فأما الشاعر: فيشير إشارة عامة إلى تفسير مثل هذه الظاهرة، ويقول:

وكل امرىءٍ -والله بالناس عالم -
له عادة قامت عليها شَمَائِلُه
تعودَّها فيما مضى من شبابه
كذلك يدعو كُلَّ أمرٍ أوَائِلُهُ

والشاهد فيه: الشطر الأخير، فكل أمر تغلب عليه الصفة التي بدأ بها.
ولكن أساتذة التربية الأوائل قَرُبوا أدنى من الشاعر، فاتضح وانكشف

لنا مذهبهم، بما فصّلوا وعينوا من معنى أوائل الأمور.

منهم من صاغ ذلك في حروف قليلة شاملة، فقال:

(الفترة بعد المجاهدة: من فساد الإبتداء).

ويريد بالفترة: الفُتور.

فهـو الإبتـداء إذن، أي الخطوات الأُولى للداعيـة المسلم في طريق الدعوة الموصل إلى الله، تكون صحيحة، فيرتقي بلا فتور ونكوص، وإن فتر فبـمقدار لا يتعدى أدنى ما أُثِرَ من سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم. وتكون معيبة هذه الخطوات، فيفترَ وينكص عن الإرتقاء.

ولكن من أين يعترض الداعيةَ الفتورُ إذا دفعه مُرَبُّوه بقوة أوَّلَ مَرَّة؟

وكيف لا يتسارع في يومه وغده سيرُ من قطع به أمسُه مرحلةً نحو غايته؟

ومن أيقن أنه يتبع رسـولاً من أُولي العـزم، صلى الله عليـه وسلم، فكيف لا يستمد من عزمه؟

فهي الخطوات الأُولى إذن: مَن جعلناها له متقَنة: ثبتت بعد ذلك قدمُه، بما يشاء الله، ومن تركناه يضطرب فقد أعطينا لشيطانه المقص يقطع به حبل ما بيننا وبينه، يتربص لذلك غفلة.

فإن لم يحصل الشيطان على المقص، وفاتته المفاجأة، فإنه يقنع بأن يمسك طرف الحبل يفلُ خيوطه بتدريج، ويلقي في نفس من اعوجت بدايته الدعاوى، ويريه قليل خيره وعمله كثيراً، حتى يستولي عليه الغرور والتطاول، فيرتكس هالكاً.

وهذه العقدة الثانية للشيطان أبصرها آخر من الصالحين، ووصفها يحذرنا، فقال:

(انما تتولد الدعاوى من فساد الابتداء، فمن صَحّت لله بدايته: صَحّت نهايته، ومن فَسَدَتْ بدايته: فربما هلك). بل يهلك في الأغلب، فإن مبنى البداية على التجرد، فإذا حُرم من صفائه في الأول فإن بنيانه يظل مهتزاً

مهما شمخ عالياً، بل الخطر كل الخطر عليه في الحقيقة إذا شمخ، فإنه يسرع إلى التمايل عند كل نداء ببدعة أو دعوة لمغنم، لأن من شأن الشيطان أن يُزَيِّن البدعة ويجملها، وإن من شأنه أن يستغل وقت الحاجة ليغري، ولئن تردد هذا الرجل الصالح فذكر مجرد الإحتمال واستعمل كلمة (ربما)، ولئن ترددنا فاقتصرنا على (الأغلب)، فإن ثالثاً قد جزم بذلك فقال:

(من لم يصح في مبادىء إرادته: لا يسلم في منتهى عاقبته).

وما هو بنسيان منه لمشيئة الله تهدي وتثبت من يختار، ولكنه يتحدث عن تجربته في التربية، ويقدم تقريره عن نتائج تفتيشه، واستقراء أحوال من عرفهم.

وهكذا تكون عنايتنا بالابتداء خطأ بارزاً ظاهراً في فننا التربوي الحركي.

□ وهي النية الحرة

وإنما يَعْنون بصفاء الإبتداء معنيين يتتابعان في توال، فيتلازمان: النية الصالحة، والهمة العالية. حصرهما البحتري في شطر مبين وسماهما:

*** نفس تضيء، وهمة تتوقد[1] ***

والنفس المضيئة كناية عن النفس التي احتوت نية صافية، فهي تنير بما يكون لها من هذا الصفاء.

وهي: (النية الحرة) التي ذكرها البحتري أيضاً في بيت آخر[2]، فأحسن الوصف وأجاد، فكأنها حرة مما يقيد غيرها، من الأهواء والأطماع والمصالح، لم يستعبدها درهم ولا دينار ولا جمال أُنثى، ولم تكن رقيقاً لمنصب أو شهوة.

فالداعية لا يصدر قط عن شهوة، ولا طلب مصلحة، وإنما له في كل حركة وسكنة تطلعات إلى الأجر.

---

(١) (٢) ديوان البحتري ١/٦٢٩/ ٤٠.

وكذلك كان الصالحون.

وبهذا الوصف وصف هشام بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز الأموي - رحمه الله-فقال:

(ما أحسب عمر خطا خطوة قط إلا وله فيها نية)[٣].

ولذلك استطاع عمر في أقل من سنتين تقويم اعوجاج جيلين، وعلى داعية الإسلام اليوم أن لا يستكبر عظَم الإنحراف الذي عم بلاد الإسلام، فإنه-إن قَرَن كلٌ خطوة بنِيَّة مثل الَراشد الخامس -سيهزم حزبين بإذن الله في أقل من سنتين.

ويتعاظم الخير في عقود المؤمنين مع الله كلما زاد تجردهم حين العقد، ولذلك رأت الدنيا عظم الخير في ولاية عمر بن عبد العزيز لما تجرد سليمان بن عبد الملك -رحمه الله -محض التجرد حين عقد له واستخلفه وقال:

(لأعقدن عَقْداً لا يكون للشيطان فيه نصيب)[٤].

ولا تنتصر الدعوة إلا حين لا يكون في عقود الدعاة معها ومع ربها للشيطان نصيب.

بل العمل الصغير بالنية يَعظُم، كما يشير عبد الله بن المبارك في قوله:(رُبّ عمل صغير تُعَظّمه النية، ورب عمل كبير تُصغّره النية).

ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثراً من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس، كما ينص على ذلك طب عبد القادر الكيلاني في قوله:(كن صحيحاً في السر:تكن فصيحاً في العلانية)[٥].

وأما المخلّط في نيته فيخلّط عليه في أموره وسيرته،كان ذلك في التاريخ على أهل التخليط حتماً مقضياً، وهو المعنى الذي كشفه التابعي الجليل مُطّرف بن الصحابي الجليل عبد الله بن الشِخّير العامري في قوله:

---

(٣)سيرة عمر لابن عبد الحكم ٣٠/٢٩.

(٤)المصدر السابق.

(٥)الفتح الرباني/ ٦٤.

(صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومَن صفا: صُفّي له، ومن خلّط: خُلّط عليه).

ونتيجة التخليط أن يضطرب القلب في فوضى تعدم السكينة، و(إن الخطأ الأكبر أن تنظّم الحياةَ من حولك، وتترك الفوضى في قلبك)، كما يقول مصطفى صادق الرافعي [٦].

فاعرف سياسة النفس هذه أيها الداعية، وأتقن ولوجَها قبل ولوج سياسة الحكم، فإنه: (فرض على العامل أن يعرف النية من الأُمنية). كما قيل.

فهناك نية، وهناك أُمنية، والأمر كما قال يحيى بن معاذ:

(لا يزال العبد مقروناً بالتواني، مادام مقيماً على وعد الأماني). [٧]

وما اختار أحدٌ الأمانيَ تقوده إلا كان أثقل ما يكون خَطواً، ووجد ثَمَّ السرابَ الخادع، وعَدم الماءَ وقتَ العطش، وأما المضيء النفس، ومن لا أُمنية له من الدعاة، فَإنك تجده سَبّاقاً إلى كل خير أبداً، وتجده على ريٍّ دوماً، فإنه إن كان ذا قوة: استقى لنفسه، أو استسقى، فيجيبه الله بهطل من السماء، وإن كان مستضعَفاً: وجد وريثاً لموسى عليه السلام، يسقي له ويزاحم الرِّعاع.

□ وهو قَدَم الهول

والهمَّة قرينة النية، فلا شيء بعد النية قبلها، وكل الإتقان بعدها، ومن أكسبها من المربين تلاميذه عند خطواتهم الأولى فقد ضمن لهم الاستمرار إن شاء الله، وقد قيل:

(همّتك احْفَظْهَا، فإنَّ الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدقَ فيها: صَلَحَ له ما وراء ذلك من الأعمال).

ويمثل لها ابن القَيِّم بمثل لطيف، فيقول:

---

(٦) وحي القلم ٢/ ٤٤.

(٧) تاريخ بغداد ٥/ ١٨٤.

(مَثَل القلب مثل الطائر، كلما علا: بعد عن الآفات، وكلما نزل: احتوشته الآفات)[8].

فكما أن الإستعلاء بالهمة يُقي القلب نظيفاً بريئاً من المعنى الخسيس، مشغولاً بالعظام، فإنه أيضاً يقي القلب الآفات والأمراض وسهام الشيطان، كما تقي نهضةُ الجناحين الطائرَ سهام الصياد، ومهمة المربي المسلم: أن يُعلِّم الناشىء هذه النهضة العالية في مبادىء محاولاته.

ونهضةُ الجناحين هي بدورها كناية عن النفس التي احتوت تصميماً على حمل أثقال الدعوة إلى الله، فإن الجديد في سلك الدعوة إن فهم الدعوة في الأول مجرد تزكية نفس، وصحبة أخيار، وبث أشواق، وفرصة تكافل، فإنه يُحجم عن إنكار المنكر على الظالم، ويستعصي عليه فهم معادلة ابن يزدانيار في الفراسة، والتي فهمها من قبله الرجال، ويرجع عن الزحف يوم الزحف وقائمة أعذاره تحت أحد إبطيه، أولها: أنه لم يُنذر بمثل هذا من قبل، ولا يحتوي هذا الشَّرْطَ عَقدُه، ولذلك حرص رجال التربية على أن تكون أول خطوة للسالك: خطوة هَول، كخطوة السبعين من قدماء الأنصار ساعة بيعة العقبة حين أخذوا على أنفسهم أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأموالهم.

فهو هول الجهاد، أو هَولُ الإنكار، وليس ما في التجافي عن دار الغرور ذات الشهوات والتقلل من الأموال والملذات بأقل من هذين الهولين.

فإن أحب الدنيا فإنما يحبها كحب محمد بن أحمد المعروف بابن رزقويه، ذلك الحب الذي يكشف عن همة عالية وراءه، والذي ترجمه مخاطباً تلامذته:

(والله ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة، ولكن لذكر الله،

---

(٨) الجواب الكافي ٧٠.

ولقراءتي عليكم الحديث)[9].

وإنما ذكر الحديث كمثل لجنس الصالحات التي يجب على الداعية أن يحب الدنيا لأجلها لا لغيرها.

وعن أجيال السلف أخذ جيل المجددين في هذا القرن فقه الهِمّة، ففهم الإمام حسن البنا أن الداعية الهُمام:

(يبذل كل ماله، وكل دمه، وكل نفسه، في سبيل عقيدته التي آمن بها وعاش من أجلها).[10]

---

(9)تاريخ بغداد ١/٣٥٢.

(١٠)مذكرات الدعوة والداعية / ٢٣٣.



نحو أفراح الآخرة

٤

لقد وصف الصالحون لنا سمات الإبتداء لنأخذ بأحسنها، ولئن كان بعضنا ينسى، في ظروف غفلة، فإن الله خير الغافرين، وليس له أن يقعد بعد الذكرى مع القوم الغافلين، وإن عنده لذخيرة من فقه الأولين تعينه على سلوك سبل الرشد الفجاج الواضحة الموصلة إلى رب العالمين.

وإن تقوى القلوبَ في الحقيقة هي التي تقود إلى تقوى الجوارح، كما قال تعالى: (ذلك ومن يُعَظِّم شعائرَ الله فإنها من تقوى القلوب). وقال: (لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤُها، ولكنْ يناله التقوى منكم). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (التقوى ها هنا)، وأشار إلى صدره.

(فالكيِّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة، وتجريد القصد وصحة النية، مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك، مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تُذهب المشقة وتُطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمَم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحبُ الهمة، مع سكونه، صاحبَ العمل الكثير بمراحل)[1].

❑ استعلاء... ثمنه التعب

وإنما أرشدك الصالحون طريقَ الاستعلاء والسيادة بالنية والهمة، وعليك تعبه وركوب مصاعبه، وذلك: ان السيادة نهج واضح الوعر.

(١) الفوائد لابن القيِّم/ ١٤٠.

وليس أمرها بالهيِّن، وإنما هي قول ثقيل ألقاه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى أتباعه: يجب أن يسودوا.

ويمكن لهذا الثقل أن تخففه النية، فيتعاظم تأثير التعب القليل بصلاحها، كما أشار الذين وصفوا الإبتداء، ولكنّ هداية القلب، وإضاءة النفس، ونَهَضات الهمة، إنما يذكيهن الجد، فمن أرادهن دائمات: أدام جدَّه، وهو معنى قولهم:

(استجلب نورَ القلب بدوام الجدّ).

فلا بد من الجدّ الدائم، لأن خواطر الفكر دائمة، وحركات الجوارح متصلة، فإن لم يَكن الجد معهن دائماً: شَغَلهن ما هو دونه أو ضده، فيكون الهبوط من بعد الإستعلاء، يُحذرك إياه عبد الوهاب عزام، وينبهك أن:

(الفكر لا يُحَدُّ، واللسان لا يصمت، والجوارح لا تسكن.

فإن لم تشغلها بالعظائم: شغلتها الصغائر.

وإن لم تُعملها في الخير: عملت في الشر.

إن في النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهيِّن، ونفوراً عن المكروه والشاق، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق، ورُضْها وَسُسْهَا على المكروه الأحسن، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها، وحتى تنفر عن كل دَنيَّة وترباً عن كل صغيرة.

علِّمها التحليق: تكره الإسفاف.

عَرِّفها العز: تنفر من الذل.

وأذقها اللذات الروحية العظيمة: تحقر اللذات الحسية الصغيرة.).[2]

❑ وأنت صاحب إيمان

(وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في قلب حتى يتعرض لمجاهدة الناس في أمر هذا الإيمان، لأنه يجاهد نفسه كذلك في أثناء مجاهدته للناس، وتتفتح له في الإيمان آفاق لم تكن لتتفتح له أبداً وهو قاعد آمن ساكن،

(٢)مجلة (المسلمون)١/ ٥٩٥.

وتتبين له حقائق في الناس وفي الحياة لم تكن لتتبين له أبداً بغير هذه الوسيلة، ويبلغ هو بنفسه وبمشاعره وتصوراته، وبعاداته وطباعه وانفعالاته واستجاباته، ما لم يكن ليبلغه أبداً بدون هذه التجربة الشاقة العسيرة.

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: "ولولا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهم ببعض لفسدت الأرضُ". ،وأول ما تفسد: فساد النفوسَ بالركود الذي تأسن معه الروح، وتسترخي معه الهمة، ويتلفها الرخاء والطراوة، ثم تأسن الحياة كلها بالركود، أو بالحركة في مجال الشهوات وحدها، كما يقع للأمم حين تُبتلى بالرخاء). [٣]

* وأتعب الناس من جَلَّت مطالبه *

□ وأنت حر كريم

و(لا يرمي الحر الكريم إلا أن يبلغ الأمدَ البعيد في كل ما يحاوله، فلا يألو أن يبذل جهده إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة، مستمداً قوة من بعد قوة، محققاً السحر القادر الذي في نفسه، متلقياً منه وسائل الإعجاز في أعماله، مرسلاً في نبوغه من تَوَهُّج دمه أضواء كأضواء النجم تثبت لكل ذي عينين أنه النجم لا شيء آخر). [٤]

□ وأنت صاحب غاية

وإنما يوصل الداعية إلي غايته: (شغفه بدعوته وإيمانه، واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله، وذلك هو الشرط الأساسي والسمة الرئيسة للدعاة). [٥]

□ وأنت طالب نفوذ إلى الله

و(طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة، بحيث يكون رأساً في ذلك مقتدى به فيه، يحتاج أن يكون

(٣) هذا الدين لسيد قطب/ ١٠.

(٤) وحي القلم للرافعي ١/ ٦٥.

(٥) للندوي في مقدمته لمذكرات الدعوة والداعية .

شجاعاً مقداماً، حاكماً على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيله، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه، عاشقاً لما توجه إليه، عارفاً بطريق الوصول إليه، والطرق القواطع عنه، مقدام الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم، ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب). (٦)

☐ محنة الفراغ والغفلة

ويجتمع هذا الكلام الحق ليقرر أن محنة الداعية المسلم لا تكمن في معارضة الكفر له، ولا في سجنه، وتعذيبه وتجويعه، بقدر ما تكمن في استرخاء همته، والتذاذه بالراحة.

ما محنة الداعية إلا لهوه وغفلته وجلوسه فارغاً، وربما زاد فينفتح له باب من اللغو بعد اللهو.

تلك هي المحنة الحقيقية التي تفتعلها الجاهلية للدعاة، بما تعرض للناس من مغريات وأسباب لهو تلفت أنظارهم إليها.

وما انتصار الداعية إلا في أن تعاف نفسُه ما لا يؤثر في تقدم دعوته.

إن غفلة الداعية محنة، لأنها صرفته عن نصر ممكن يحققه له الجدُّ، والعمل الدائب، وعن أجر وثواب أُخروي ليس له من مقدمة إلا هذا الجد.

وسيظل اسمنا مكتوباً في سجل الغافلين الفارغين ما دمنا لا نعطي للدعوة إلاّ فضولَ أوقاتنا، وما دمنا لا نَشْغَفها حباً ولا نتخذها حرفة.

إن الداعية المسلم لا يملك نفسه حتى يسوغ له أن يمنح نفسه إجازة، وإنما هو - كما شبهه بعض الأفاضل -:

(وقف لله تعالى)

تماماً كنسخة من كتاب نافع حينْ توقف لله تعالى وتوضع في مسجد

(٦) لابن القيم في الفوائد/ ١٩.

من مساجد الله، فكل داعية موقوف لله، في جزء من أجزاء دعوة الله.
وإن فضول الأوقات ليست قليلة ومحدودة فحسب، وإنما هي أردأ ساعات اليوم، حيث يكون فيها الذهن والجسم متعبين أشد التعب.
وما تجاوز الأستاذ المودودي-رحمه الله- أعراف أجيال الدعاة حين صارحنا في تذكرته القيمة وقال:
(إنه من الواجب أن تكون في قلوبكم نار متقدة تكون في ضرامها على الأقل مثل النار التي تتقد في قلب أحدكم عندما يجد ابناً له مريضاً ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد في بيته شيئاً يسد به رمق حياة أولاده، ولاتزال تقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعي.
إنه من الواجب أن تكون في صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم في كل حين من أحيانكم بالسعي في سبيل غايتكم وتعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد والحنيفية وتركز عليها جهودكم وأفكاركم بحيث أن شؤونكم الشخصية، وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين. وعليكم بالسعي أن لا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية في الحياة، وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة في أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم، فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكناً بمجرد أقوالكم).[٧]
ولم يتجاوز حين كرر وقال ثانية أن:
(اسمحوا لي أن أقول لكم أنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وآبائكم وأمهاتكم فإنكم لا بد أن تبوءوا بالفشل الذريع، بفشل لا تتجرأ بعده أجيالنا القادمة على أن تتفكر في القيام بحركة مثل هذه إلى مدة غير وجيزة من الزمان، عليكم أن تستعرضوا

(٧) تذكرة دعاة الإسلام/ ٥٧-٥٩.

قوتكم القلبية والأخلاقية قبل أن تهموا بالخطوات الكبيرة). [٨]

إن من يطالب الآن بإلغاء الراحة فإنه إنمّا يستند إلى مادة واضحة في قانون الدعوة والدعاة سَنَّها عمرُ الفاروق رضي الله عنه تنطق بصراحة أن:

(الراحة للرجال: غفلة). [٩]

وجددها إمام المحدثين شُعبة بن الحَجَّاج البَصْري فقال:

(لا تقعدوا فراغاً فإنَّ الموت يطلبكم).

ذلك أن مَن أراد الراحة والسكون فإن الموت والقبر يزودانه منهما حتى يشبع.

وكأننا -والله -قد أسرفنا في الغفلة، ولا بد من عزيمة نفطم بها نفوسنا عن اللهو.

إننا حين نثبت جواز التمتع بالمباحات فلكي يعلم مَن نخاطبه أننا لاندعو إلى مثل الطريقة المبتدعة التي كان عليها بعض الزهاد من الجوع والعري والرهبانية، وإلا فلا يزال جواب ابن الجوزي يصلح جواباً لنا حين سأله سائل: (أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي)؟

فقال:

(عند نفسك من الغفلة ما يكفيها). [١٠]

فإن اعترض معترض: اتيناه بمثل كلام ابن القَيِّم حيث يقول: (لا بد من سنة الغفلة، ورقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم). [١١]

فنحن لا ننكر ما في المعنى الحرفي لإطلاقات مَن عاب الراحة من إرهاق، وإنما نريد-كما أرادوا -تقليلها إلى أدنى ما يكفي الجسم، كل حسب صحته وظروفه، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمان أشد حاجة

---

(٨)تذكرة دعاة الإسلام/ ٥٧-٥٩.

(٩)أدب الدنيا والدين للماوردي/ ٨٢.

(١٠)ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٤٢٢.

(١١)الفوائد / ٤١.

للانتباه ومعالجة قلبه وتفتيشه مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل، ويسوده التواصي بالحق، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء، وسيوف الأُمراء، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعاً مبصَراً بواسطة الإذاعات، والتلفزة، والصحف، وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور، فضلاً عن ارتفاع حكم الإسلام عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف.

وما أصدق تصوير إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي -رحمه الله- لهذه الحقيقة حين يقول:

(إن هذه المدنية السفيهة، المصيِّرة للأرض كبلدة واحدة، يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم وما لا يعني، بالجرائد صباحاً ومساءً، غلُظَ بسَبَبِها وتكاثف بملاهيها حِجَابُ الغفلة، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة).

فكن خفيف النوم أيها الداعية المسلم لتحصل لك هذه الهمة العظيمة.

وانتبه من رقدة الغفلة ، فالعمر قليل

واطَّرِح سوف وحتى فهما داء دخيل

وعَبَّر الصالحون عن هذه المعاني أحياناً بلفظ آخر سموه: حفظ الوقت، أو: مراعاة الوقت.

فيرى الإمام البنا أن:

(من عرف حق الوقت فقد أدرك قيمة الحياة، فالوقت هو الحياة).

أو كما قال في خُطبة المؤتمر الخامس:

(إنما الوقت هو الحياة).

يخالف بذلك قول الماديين: الوقت من ذهب.

وكان -رحمه الله- يحب أن يتجاوز الداعية معرفة حق وقت يومه إلى التخطيط لصرف وقت غده، فينوي لكل ساعة نوع خير، و:

(ينام على أفضل العزائم). (١٢)

وترك الفراغ، والإستيقاظ من رقدة الغفلة: معناهما التعب، ثم التعب، واستفراغ الوُسع في العمل لله. نطق بذلك الإمام الشافعي، ونفى أن تصح مروءة داعية يطلب الراحة، فقال:

(طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل تعبانَ في كل زمان).

ولما سئل أحد الزهاد عن سبيل المسلم ليكون من صفوة الله، قال: (إذا خلع الراحة، واعطى المجهود في الطاعة). (١٣)

فالداعية الصادق يخلع الراحة، ويعود لا يعرفها، وتصبح عنده ذكريات شبابه الأول وصباه فحسب.

وأما الإمام أحمد فقد ترجمت سيرته في المحنة هذه الأوصاف عملاً، حتى قال لابنه:

(يا بني: لقد اعطيت المجهود من نفسي). (١٤)

يعنيْ في المحنة.

وبذلك حَدَّ حَداً لا يسع الداعية النقصان فيه، ولا التخلف عنه، فعلى الداعية بذل المجهود من نفسه، واستفراغ كل طاقته في خدمة الدعوة.

طريق رسمه الإمام أحمد لا يسعنا أن نحيد عنه، ومقدار قدره للدعاة ليس لهم أن يقفوا دونه، نصيباً مفروضاً، هو: المجهود من النفس،

(١٢)مجموعة رسائل الإمام/ ٤٩٨.

(١٣)تاريخ بغداد/ ٣/ ٧٥.

(١٤)مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي/ ٣٣٩.

وعلامته حين المحن: الصبر على الأذى حتى الموت. وعلامته في حياتك اليومية: إنك إن جئت إلى فراشك ليلاً لتنام وجدت لركبتيك أنيناً، وفي عضلاتك تشنجاً، لكثرة ما تحركت في نهارك.

وإنما نسميه التعب، والأنين، والتشنج، لغرض تفهيم الداعية الجديد، لأن هذه الاصطلاحات هي لغة أهله وعموم الناس الذين تركهم من قريب، وأما في لغة الدعاة فهو محض اللهو الذي تهفو إليه نفوسهم، وعنهم نقله البحتري في وصفه لممدوحه حين يقول:

قلب يُطُل على أفكاره ، ويدٌ

تُمضي الأُمور، ونفس لهوها التعب[١٥]

ومن لا يعلم موازين المؤمنين يظن ذلك حرماناً من لذة، وخداع ألفاظ، وغواية اتباع الشعراء، ولكن من أُوتي علم الكتاب يعرف أن الراحة الحقيقية: راحة الآخرة ، لا راحة الحياة الدنيا، ولذلك لما قيل للإمام أحمد:

(متى يجد العبد طعم الراحة)؟

قال:

(عند أول قدم يضعها في الجنة).[١٦]

ولما تعجب غافل من باذل وقال له:

(إلى كم تتعب نفسك؟).

كان جواب الباذل سريعاً حاسماً:

(رَاحتَها أُريدُ).[١٧]

(فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته: جعله عمارة لقلبه وروحه. وكلما نقص شيء من دنياه: جعله زيادة في آخرته. وكلما

(١٥) ديوان البحتري/ ١/ ١٧٢.

(١٦) طبقات الحنابلة ١/ ٢٩٣.

(١٧) الفوائد لابن القيم/ ٤٢-١٨٩.

مُنِع شيئاً من لذات دنياه: جعله زيادة في لذات آخرته. وكلما ناله هَم أو حُزْن أو غَمٌّ: جعله في أفراح آخرته).[18]

ومن لمح فجر الأجر: هان عليه ظلام التكليف، كما يقول ابن الجوزي.

ولعمرو الله ما هو بظلام، ولكنها لغة اضطر لها كما اضطررنا ليعقل مُرَادَهُ الرَّاقِدُونَ.

(18) الفوائد لابن القيم/ 42-189.

التسبيح في دقائق الأسحار الغالية، والتعامل الأخوي الإيماني: ركيزتان متلازمتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وعينان نضاختان، تسكبان خيراً للدُّعاة لا يَنْضبُ.

(إنهما ركِيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه).[1]

▢ التقوى أولاً

وإنما التسبيح عنوان الإيمان وإسلام النفس لله تعالى، والإيمان عنوان التصور الموزون، وضمانة الثبات أمام مخاطر الطريق.

(ركيزة الايمان والتقوى أولاً.. التقوى التي تبلغ أن توفي بحق الله الجليل.. التقوى الدائمة اليقظة التي لا تغفل ولا تفتر لحظة من لحظات العمر حتى يبلغ الكتَابُ أجَلَهُ:

"يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تُقاته"..

اتقوا الله -كما يحق له أن يُتَّقَى-وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهداً في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها. وكلما أوغل القلب في هذا الطريق: تكشفت له آفاق، وجَدَّت له أشواق. وكلما اقترب بتقواه من الله: تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى،

(١) الظلال ٤/ ٢٢-٣٢.

وتطلَّع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام!
﴿ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾. .

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه، فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً، وأن يكون في كل لحظة مسلماً. وذكرُ الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع: الإستسلام. الإستسلام لله، طاعة له، واتباعاً لمنهجه، واحتكاماً إلى كتابه. وهو المعنى الذي تقرره سورة آل عمران كلها في كل موضع منها.

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها، وتؤدي دورها، إذ انه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعاً جاهلياً، ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أُمة، إنما تكون هناك مناهج جاهلية، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية، إنما تكون القيادة للجاهلية).[2]

(لا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيَم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي، فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل، ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر، وللفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال.

وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه، وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون. . ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية، ومن الباعث على إرضاء الله، وتوقي غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد، ومن سلطان الله في الضمائر، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك.

ثم لا بد من الإيمان أيضاً ليملك الدعاة إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق، ويحتملوا

(٢) المصدر السابق.

تكاليفه، وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وَجَبَرُوته، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العـزائم، وثقلة المطامع. وزادُهم هو الإيمان، وعُدَّتهم هي الإيمان، وسندهم هو الله.. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد، وكل عُدَّة سوى عُدَّة الإيمان تُفَلُّ، وكل سند غير سند الله ينهار). (٣)

ويُحَدِّثنا إقبال عما فعله هذا الإيمان من توحيد التصور الذي انتبه إليه سيد قطب فيقول:

وُحِّـد الرَّئـي لـنا والفكرةُ
كسـهام جمعتها جُعـبةُ

نحـن فـكرٌ وخـيال واحد
ورجـاء ومـآل واحد (٤)

فهذا أقصى ما يكون من الاتحاد، بأدنى ما يكون من الوسائل، فالرؤية واحدة، والفكر والخيال واحد، والرجاء واحد، والمصير واحد، كل ذلك يعطيه الإيمان، وما أسهل تناوش مَن مَلك القلب لهذا الإيمان البسيط، ذي الأعطيات الثمينة.

□ ونثنّي بالأخوة...

(أما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأُخُوَّة.. الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداءً، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حُفرةٍ من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياتِه لعلكم تهتدون﴾..

فهي أُخُوَّةٌ إذن تنبثق من التقوى والإسلام.. من الركيزة الأولى..

(٣) المصدر السابق.
(٤) ديوان الأسرار والرموز/ ٨٩.

أساسها الاعتصام بحبل الله- أي عهده ونهجه ودينه- وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، وعلى أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة.

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»..

هذه الأُخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً)[٥].

(وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين.. على الإيمان بالله: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله -سبحانه- وتمثل صفاته في الضمائر، وتقواه ومراقبته، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلاّ في النادر من الأحوال. وعلى الحب. الحب الفياض الرائق، والود. الود العذب الجميل، والتكافل. التكافل الجاد العميق... وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً، لولا أنه وقع، لعُد من أحلام الحالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة، وهي قصة وقعت في هذه الأرض، ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان!

وعلى مثل ذلك الإيمان، ومثل هذه الأُخوة، يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان).[٦]

ومن هنا كانت هذه العودة إلى محاولة تأكيد معنى الأُخوة كجزء من إحياء فقه الدعوة، فإن الأُخوة شِرْعة دعوتنا، وشعارها واسمها، وميثاقها الذي واثقتنا به، وكتابها الذي كتبته على نفسها، وما زالت تأتي دعوتَنا المباركة بصائرُ جديدة من تجاربها المتكررة تسرع بها إلى ابتغاء كل وسيلة إلى هذه الفضيلة، وتجميع أنصارها إلى الله على التحابب، والتكافل،

(٥)الظلال ٤/ ٢٣-٢٨.

(٦)المصدر السابق.

والتسامح، ومكملات هذه الرواسي الشامخات، وكمالها أن ترى من بعد وحدة الرؤية والفكر والخيال والرجاء والمصير: وحدة القلب والروح، بل ووحدة اللفظ أيضاً، فلا تكون إلا صيحات واحدة، بحروف متقاربة، تعبر عن مفهوم واحد، كما أراد إقبال حين يقول:

نحن من نعـــمائه حلف إخـــاء

قلبُنـــا والـــروحُ واللفظُ سواء[٧]

فلم يقنع بوحدة القلب، حتى توحدت الألفاظ.

عَقْد الأخوَّة

ويظل هذا الاتحـاد يتنامى حتى يكون عَقْداً واجب الوفاء، فقـد تكلم ابن تيمية عن (عَقْد الأُخوّة)هذا، وبين أن الحقوق التي يُنشؤها إذا كـانت من جنس ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديثه لكل مؤمن على المؤمنين فـإنما هي:(حقـوق واجـبة بنفس الإيمان، والتـزامهـا بمنزلـة التـزام الصلاة والزكـاة والصيام والحج، والمعاهدة عـليها كالمعـاهدة على ما أوجب الله ورسوله، وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن وإن لم يحصل بينهما عَقْدُ مؤاخاة).[٨]

فيأتي العَقْدُ يؤكدها إذن، ولم يحصل خلاف إلا في التوارث عند عدم وجود القرابة كـما كان الأنصار والمهـاجرون يتوارثون بالتآخي الذي أقره النبي صـلى الله عليـه وسلم بينهم أوَّلَ مَقْدَمه المدينةَ، فقـد قـال أكثـر الفـقـهـاء بنسخ ذلك، وأجازه أبو حنيـفة وأحـمـد بن حنبل في إحـدى الروايتين عنه.

إن هذا العقـد الأخوي يزيد الواجب الإيماني ثبوتاً، وما نراه إلا كبيـعة

---

(٧)ديوان الأسرار والرموز/ ٨٩.

(٨)مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ١٠١.

سَلَمة بن الأكوع الثانية رضي الله عنه تؤكد بيعتَه الأولى حين كانتا في ساعة واحدة يوم الحديبية تحت الشجرة، كما جاء عنه في صحيح البخاري في قوله:

(بايعْنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، فقال لي: ياسلمة: ألا تبـــايع؟ قلت: يا رســـول الله قـــد بايعتُ في الأول. قـــال: وفي الثاني)[٩]، فكذلك المسلمـون: أوجب الإسـلام على بعـضـهم البـعض حقوقاً، ويتبـايعون بَعقْد الأُخوة في الثاني، زيادة خير، وابتغاء توثق، وعنصر تذكير، لتنشأ الجماعة المؤتلفة المتماسكة المستحكمة التي وصفها إقبال -رحمه الله- في رموزه حين يقول:

كـلُّ فـرد بأخـــيه ائتلـــــــفا
مثـــل دُر في سمـــــوط أُلّفا
لهُم في عيشهـم مُعـــترَكُ
كـــل فرد بأخـــيه ممســكُ
مِن جِذابٍ تتوالى الأنجُـــم
كوكـــبٌ مِـــن كوكـــبٍ مستحكِمُ (١٠)

وهكذا، فإنه ليس من عمل للداعية المسلم اليوم أثمن من غَدوة يهب فيها لدعوته -بفضل الله- ناشئاً يغمس نفسه فيؤازره، فيستغلظ، فيستوي على عَقْد الأُخوة، يعجب الدعاة، ويغيظ به الكفار.

❑ مُيزان التصاحب

وهكذا تكون الأُخوة بين الدعاة هي الركن المهم في تربيتنا بعد الصلاة والتسبيح، وما من جزء من أجزاء الحركة الإسلامية يقذف بنفسه في

---

(٩) صحيح البخاري ٩/٩٨.

(١٠) ديوان الأسرار والرموز / ٨٤.

ميدان العمل العام قبل إحلال معاني الأُخوة الإيمانية في أعضائه إلا ذاق وبال تساهله وتفريطه، ولا مناص من أن تَدْرُج بدايتُه على طريق الإيمان واستغلال دقائق الليل الغالية، ويكون فيه (أدب الأُخوة) مترجَماً في تناصح وتكافل وتحابب يجمع القلوب ويعلمها التحالم - إن لم يكن الحلم - عند إبطاء المقصر وتجاوز الملحاح، مثلما يعلمها المكافأة والوفاء والشكر عند إسراع المبادر، وعدل خفيض الجناح.

لقد أحب الإمام البنا هذا الأدبَ للدعاة، ووضع له منهجاً بحيث (يرفع أخوتهم من مستوى الكلام والنظريات إلى مستوى الأفعال والعمليات)[11]، ورأى رحمه الله من تآخي الرعيل الأول ما أقر عَيْنَه حَيّاً، وبرهان وفاء محبيه من بعده أن يكونوا دوماً عند محاسن هذا الأدب، وأن يفيئوا إليه عند أول انتباهة إذا أنستهم الغفلات.

إنها نعمة الأُخوة.

يجعلها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أثمن منحة ربانية للعبد من بعد نعمة الإسلام فيقول: (ما أُعطي عبدٌ بعد الإسلام خيراً من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم وُداً من أخيه فليتمسك به).

ويسميها التابعي مالك بن دينار: روح الدنيا، فيقول:

(لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة:

لقاء الإخوان.

والتهجد بالقرآن.

وبيت خال يذكر الله فيه).

ويحكر لها الشاعر صفة الذخيرة، فيقول:

لعمـــــرك ما مال الفتى بذخيرة
ولكن إخوان الثـقـــات الذخائر

(11) رسالة التعليم / المجموعة ٢٨.

ولهذا كثرت توصية السلف باتقان انتقاء الأخ الصاحب،، لتصاب الذخيرة الحقة، والروح الحقة، فكان من وصايا الحسن البصري سيد التابعين أن:

(إنّ لك من خليلك نصيباً، .وإن لك نصيباً من ذِكر من أحببت، فتنقوا الإخوان والأصحاب والمجالس)[١٢].

فأما أولاً: فقد عَمَّموا صفة الخيرية بإطلاق تحكم الانتقاء، وعبروا عن ذلك بقولهم:

أنــت في النـاس تقـــــاس
بالذي اختـــرت خلـــــيلا
فاصـــحب الأخيار تعـــــلو
وتـــــنل ذكـــراً جميـــلا [١٣]

ثم خصصوا، ففسروا الخير بالتقوى، وقالوا:

نافس، إذا نافســـت ، في حكمة
آخ،إذا آخيت ، أهــل التُّقـــى
ما خـــير من لا يُرتجـــى نفـــعه
يوماً، ولا يؤمـــن منـــه الأذ ـى [١٤]

ثم زادوا وذهبوا أبعد، فعددوا صفاتهم، يُعِيْنوك على دقة الإختيار.

● أعلى صفاتهم: طِيب القول، ذكرها عمر رضي الله عنه فقال:

(لولا أن أسير في سَبيل الله، أو أضع جبيني لله في التراب، أو أجالس قوماً يلتقطون طيِّب القول كما يُلتقط طيب الثمر، لأحببت أن

---

(١٢)كتاب الزهد لابن المبارك ٢٣٢.

(١٣)نفح الطيب للمقري ٨/٦٧.

(١٤)لأبي العتاهية في ديوانه ٢٥.

أكون لحقت بالله)[١٥].

● ومن صفاتهم: أن أحدهم: (يرفع عنك ثقل التكلف، ويُسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ. وكان جعفر بن محمد الصادق - رضي الله عنهما - يقول: أثقل إخواني عليّ: من يتكلف لي وأتحفظ منه، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي)[١٦].

● ومن صفاتهم: ترك حضيض الدينار والدرهم، والسمو إلى العلا، وضربوا لذلك الإمام أحمد بن حنبل في انتقائه الأصحابَ مثلاً، وذلك حين يقول الذي يُطريه:

وإخوانه الأدنون كـــل موفـــق

بصير بأمر الله يســمو إلى العلا [١٧]

● ومن صفاتهم: مذاكرة الآخرة، كما قال الحسن البصري:

(إخـوانـنا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكـروننا بالدنيـا وإخواننا يذكروننا بالآخرة)[١٨].

● ومن صفاتهم: الإيثار، وهو أحد أركان بيعة الشاعر صالح حياوي لهم حين يقول:

أبداً أظل مع التقاة، مع الـــدعاة العـاملين

الناشرين لواء أحـــمد عاليـــاً في العـالمين

المنصفين المؤثرين علـى النـــفوس الآخـرين

معهم أظــل، مع التقاة، مع الدعاة المســلمين [١٩]

● ومن صـفـاتهم: بذل النصح، فأحدهـم: (صـالح يعـاونك في دين

(١٥)الزهد لابن المبارك/ ٤١٦.

(١٦)إحياء علوم الدين ٢/ ١٨٨.

(١٧)مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي/ ١١٤.

(١٨)إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٦.

(١٩)مجلة التربية الإسلامية ٧/ ٥٥.

الله، وينصحك في الله).

❑ آفات المجالس

وهذا الإنغماس يؤدي إلى الإجتماع والمجالسة بالتالي، ولذلك وجب التعرف على سيماء المجالسة النافعة، والإبتعاد عن بعض المعايب التي تلحقها.

ويجمع ذلك: تحرّي النفع في الدين، فإنها الكلمة الجامعة المانعة، والمادة الموجزة في قانون التآخي، يضعها زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، فيقول: (إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه)[٢٠].

فشأن كل داعية ناشىء أن يرتاد لنفسه المجالس التي يزيد فيها إيمانه وعلمه، وأن يقصد المجالس التي تنفع دينه، ولا يعرف مجالس اللغو واللهو وقتل الفراغ.

وشرح ذلك إقبال بشطر حاسم، يريد لنا أن لا نطيل القول بعده، فقال يدعو الله عز وجل:

هَبْ نجيّاً يا وليّ النعمة
مُحْرِمَاً يدرك ما في فطرتي

هب نجيّاً لَقِناً ذا جُنَّة
ليسَ بالدنيا له من صلة [٢١]

فهذا جماع القول:

إن صاحب الداعية المسلم: داعية آخر ليس بالدنيا له من صلة.

---

(٢٠)تهذيب التهذيب ٣/٣٩٦.

(٢١)ديوان الأسرار والرموز /٧١.

صلته بالآخرة، وشوقه إلى الجنة.

بينه وبين الدنيا انقطاع وجفاء.

إن تحرَّيت عنه: وجدته.

إنه هو صاحبك.

آخه، وأحببه، واصحبه، وأعطه مثل الذي يعطيك، وإلا فإنك أنت العاجز، فإنه كان يقال:

(أعجز الناس من فرّط في طلب الإخوان، وأعجز منه مَن ضيّع مَن ظفر بهم).

فاطلب الإخوان: نرفع عنك صفة العجز.

ولابن القيم كلام موجز شامل في ذلك، يدل على تجربة داعية من أهل الوعي، شَخّص فيه أخطار المجالس فقال:

(الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الإجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، وتكمن فيه ثلاث آفات:

احداها: تزين بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود)[٢٢].

والذي يؤسف له أن مخاوف ابن القيم هذه تحولت إلى واقع تحياه بعض مجالس الدعاة الحالية، ووجد التزين وسيلة ليظهر فينا، وزادت الخلطة بين الدعاة عن مقدارها الذي تحتاجه الدعوة، وتحولت إلى شبه

(٢٢) الفوائد لابن القيم / ٥١.

بطالة وشهوة تلهي عن مقصود تجمعنا في متابعة العمل مع الناشئة والجدد، وفي الإنطلاق خلال المجتمع العام لتبليغه كلمة الإسلام.

لـ والمرء يعجب من صغيرة غيره !.

ولو أن عادتي التزين والبطالة تقفان عند حدهما لعولج أمرهما بمجرد استنهاض وتذكير خفيفين، ولكن هاتين الآفتين تتعديان في آثارهما، ويتولد عن اجتماعهما خُلُق الضيق عن العفو، بينما يشير استقراء الحياة الجماعية إلى ضرورة خُلق التسامح والمرونة لمن يحياها.

وقد يظن البعض أن مثل هذا الكلام أقرب إلى مواعظ العامة منه إلى بحوث فقه الدعوة، ولكن من يعاني إدارة العمل اليومي للدعوة الإسلامية يدرك ضرورته، ويعرف كم من الترف، بل والخطر، يكمن فيمن يتعالى عن مثل هذه المواعظ ليهمس بمعاني فنون التخطيط والعمل السياسي في آذان من تضيق صدور بعضهم عن معاني التسامح والعفو عن صاحب الزلة والخطأ، ولا بد من اقتران التوعية العملية للداعية المسلم بالتربية الخلقية الإيمانية، ولا بد من سيرهما معاً.

وهذا هو مصدر إصرار الأقدمين والمعاصرين على التوصية بسعة الصدر، والتحابب الأُخوي.

يقْدُمهم الفُضَيلُ بن عياض فيقول: (مَن طلب أخاً بلا عيب: صار بلا أخ)، فضع في حسابك عندما تعقد(عقد الأخوة) أن من تتعاقد معه غير معصوم.

ويأخذ الشعراء دورهم في التوصية: فيقول مشرقيهم:

*** لا لوم في خطأ ولا تثريبا ***

ويقول مغربيهم:

*** سامح أخاك إذا أتاك بزَلَّةٍ ***

ويقول ثالثهم:

إذا ما بدت من صاحب لك زَلَّةٌ
فكن أنت محتالاً لزلته عــــذراً

أحب الفتى ينفي الفواحشَ سمعُهُ
كــأنَّ به عن كُلِّ فاحـــشةٍ وَقْرا

سليمُ دواعي الصدر لا باسط أذى
ولا مانع خيراً ، ولا قائـــل هجرا

ولكن كم أرتنا الأيام من قال هَجراً، وتراه إذا ما دعوته إلى اللين يعبس ويبسر، ويذهب مغاضباً، كأنما تدعوه إلى شيء نُكُر، وإنما هي سذاجة نفسه نريد أن نقيه إياها، وإنما هو تربّص العدو نريد أن نبعده عنه، بما عرفنا عن عدونا من قعوده للدعاة صراط أُخوتهم المستقيم.

وهاؤم تفحصوا تاريخنا، كم من منتصر لنفسه استعجل فخاصم، فما استطاع من قيام وما كان منتصراً، ولفته دوامة العيش المعقد فضاع في خضمها منسياً، يأكل ويشرب، وليس له من بعد ذلك نوع وجود.

إن جموع هؤلاء المغاضبين إنما تأخرت، وضاعت في تيار الدنيويات بما كانت بموازين الأُخوةُ تُخل، ولو أنهم استقاموا على الطريقة الأُولى، ولجأوا إلى فقه الأُخوة الموروث، لما مسهم اللغوب والضياع.

إن الفقه الذي ورثناه عن التابعي بكر بن عبد الله المُزَني ينص على أنك: (إذا وجدتِ من إخوانك جفاء فذلك لذنب أحدثتَه، فتُب إلى الله تعالى، وإذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة أحدثتَها فاشكر الله تعالى).

فاتَّهم نفسك إذا عوملت بجفاء، أو رأيت نوع تقصير في حقك الذي تظنه، قبل أن تبادر بالهجوم.

إن هذه النصوص القديمة من فقه الأُخُوة الإيمانية، يصوغها عبد الوهاب عزام في العصر الحديث في بيتين جامعين من مثانيه ويقول:

في فؤادي بحران: ملحٌ وعــذب
وبه صَرْصَرٌ ورِيــح رُخــاء
فهو مُرّ على البُغَاة عَــصُوفٌ
وهو عذب لصاحـبي وصــفاء[٢٣]

فأنت مطالب أيها الداعية المسلم أن تملأ قلبك من مشاعر الأُخُوة في الله لإخوان العقيدة بقدر ما يجب أن تضع فيه من مقت أهل الباطل البغاة.

---

(٢٣) ديوان المثاني/ ٣٨.

وحدة العبودية، وتكاملها، في أجزاء هذا الكون، لله تعالى الذي خلقه: حقيقة يراها المتفكر، إذا استطاع أن يفلت من الصخب الملهي، ويتأمل في هُدوء ورَوِيّة.

منها: عبودية لا تشوبها الوساوس، لبساط الأرض جميعه، حشائشه والباسقات، نبهك القرآن لها، في قوله عزّ وجلّ:

(والنجم والشجر يسجدان)

قال الطبري: (يعني بالنجم: ما نَجَم من الأرض من نبت، وبالشجر: ما استقل على ساق)[1].

فهو منظر سجود دائم يراه المؤمن ليكون له تذكرة حين تُثقله الغفلة، يديم له سجوداً قلبياً، آيته الرضا عن الله، والتسليم لحكم حلاله وحرامه، به يستكمل سجود جبهته مغزاه.

ومتى ذاق المؤمن، بالخلوات المسترسلة، لذة مراقبة هذا السجود الأخضر، المتوشح بألوان الزهر، وأذِن لقلبه أن يبالغ في الهبوط مُقلّداً، حتى يلامس أوطأ الإخبات: نادى غيره للمشاركة، وعرض عليه الرفقة، منخلعاً عن حسد واحتكار.

وتلك هي دعوة إقبال، لما ظفر بسر السياحة الإيمانية الصامتة، في

(١)تفسير الطبري ١/٥١٦طبعة دار المعارف.

البراري الناطقة، ونبهك إلى إنصات واجب، لتسبيح دائب، وأوصاك أن:

دع الدُور واطلـــب فسيح البراري
وانظر إلى صفحـــــــات الجمالِ
علـــى حافـــة الماء دون ملال
تأمـــــــــــل تَرَقْرُق ماء زلالِ
وحَدِّق إلى نرجـــــس ذي دلال
وقبِّل عـــــيوناً له كالـــــــلآلي [٢]

وكان عبد الوهاب عزام أول مجيب له، وطفق يستغرق في التأمل، فرآه جاهل بما هنالك، فأنكر عليه، فقال:

لست أخلو لغفـــلة وسكـــــون
وفـــــــرار من الورى وارتـياحِ
إنمـــا خـــــــــلوتي لفكر وذكرٍ
فهـــــي زادي وعدتي لكفـــاحي [٣]

وما زاد بهذا على أن جدد مذهباً ســالفاً، وعرفاً عند أول المسلمين، في استلال ساعة من بين حركاتهم في التعــــــلم والتعليم، والأمر والنـــهي، وضرورات المعيشة، يميلون فيـها إلى التفرد خـــارجاً، والركون إلى أرباض مدنهم، والجلوس بين الزروع، يرجون لأنفسهم بصائر وتذكرة.

وروى ابن القيم أن شيـــخه ابن تيمية، رحمهما الله، كان يتركهم غادياً بعد الفجر مراراً، فراقبه، فوجــــده يعتزل في غوطة دمشق وحقولها، حتى غدت عنده عادة.

وما ذاك على أُســـلوب القرآن بغريب، ولا على رموز النص الشـريف

---

(٢)ديوان رسالة المشرق/ ٣٠.
(٣)ديوان المثاني/ ١١٧.

المأثور وتشبيهاته، بل هو ارتباط واضح خلالهما بين الخضرة وخصال الفطرة، ترك طابعه على طرائق المؤمنين في التعبير والتمثيل، في نحو على منحاهما، يدلك على قلوب فقهت المناسبة، واستوعبت الإشارة، وشهدت الرابط الجامع في لقيا الشجر، ومعاني الإيمان.

إنها غابة من أشجار الإيمان، فيها أيك ملتف متشابك، تجعل سيرك في ظل وارف، ومداعبة من زكي العبيق.

❏ تفجؤك فيها شجرة التوحيد

وهي شجرة غرسها القرآن، تستلقي تحت أغصانها حين تقرأ قول الله تبارك وتعالى:

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تُؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها، ويضرب اللهُ الأمثالَ للنَّاس لعلهم يتذكرون).

قال ابن القيم:

(فإنه سبحانه شبّه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علواً، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين. وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء. ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حقّ رعايتها).(٤)

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة، ويدل عليه حديث ابن عمر في الصحيح. وقال الربيع بن أنس: ذلك المؤمن، أصل عمله ثابت في الأرض، وذكره في السماء.

---

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٨٨ طبعة الوكيل .

قال ابن القيم:

(ولا اختلاف بين القولين، والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به، وهو مشبه بها)[٥].

● ومن مكانك تحتها: تشم عبير ورود بقربها، من شجرة تسمى شجرة الطاعة، شهدت منحة الرضوان، لما أُسبغت، يوم نزلت: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً).

ويفتأ المستظل بظلها اليوم ساكن الفؤاد، غير مضطرب لحرمان وفوات، ينتظر فتحاً لحركة الإسلام تندك به صروح الضلال، قد قدم له التبايع على الموت ثمناً.

● فإن اختار الله لك المحنة سبيلاً لهذه المنحة، وحَزَبَك الأمر: لجأت إلى شجرة الترحاب، تطلب الطمأنينة عندها، هازّاً جذعها، لتغدق عليك من بركتها، وتفعل ما فعلت مريم عليها السلام لما ضاقت عليها الأرض، فجاءها نداء:

(وَهُزّي إليك بجذع النّخــــلة تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنِيّاً، فَكُلي وَاشْرَبي وَقَرّي عينا).

فتأكل رُطيبات وتقنــع بها، عازفاً عن بَطر المُتْرَفين، وتغرف من ثَمَّ من سَرِي بين يديك يجري، مستعلياً بعزة دونك مدارجها، ترقى إليها وتَسْري.

● وللنبي صلى الله عليه وســلم غِراس في هذه الغابة، كما أن الحكمة اشهدت الشجر مواقف من سيرته الشريفــة، إيماء إلى هذا الارتباط، ربما، وإثارة لتطلع الغافل.

منها: شجرة الوفاء، عنوان امتزاج الأرواح الذاكـــــرة، تنطق بالشكر، وتحفظ الفضل لأهله، وتعلن عِرفان الجميل.

---

(٥)المصدر السابق والصفحة ذاتها.

وهي نخلة، تنهدت عند الفراق.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه:

(كان جذع يقوم إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فلما وُضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العِشار، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم، فوضع يده عليه).[6]

أي كأصوات النياق التي أثقلها حمل بطنها وقَرُبَ مخاضها. وتلك من معجزاته، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

جذع أُنيلَ الشرف، فوفى، واجتمع له الحَنين، فاستبدٌ به استبداداً، فَرَّقَ منه الأنين.

وما منَا أحدٌ إلا وفي بيته ديوان حديث، وكـأن النبي صلى الله عليه وسلم واقف عنده يُفَقِّهه أمرَ دينه، ويُلقنه شرائع الإسلام، والوفاء يليق لمثلنا، نتعلمه من الجذع، ونترجمه صُوراً من الاتِّباع والاقتفاء.

● **وشجرة خامسة تسمى شجرة الثبات، تلوذ بها يوم تتوزع الناس الأهواء، فتطلب النجاة معتزلاً الفِرَق كلها، (ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة)[7].**

وتصون لسانك إلا عن قولك مع عبد الله بن أبي مُليكة:

(اللهم إنا نعوذ بك أن نَرْجِعَ على أعقابنا أو نُفْتَنَ)[8].

فالأمر ما مما نقول كان هذا الاعتصام بالشجر، في إلحاح يزيد معه المعتصم شد نواجذه ضاغطاً، لو تخيَّلته، لتردَّد قلبك يهتز في قلق، بين رهبة من استرخاء يعتري فَيْجرف، وأمل في إتمام يُنجي.

إلا أن رحيق هذه الشجرة يرويك إذ الناس تلهث عطشاً، ويبل حلقك بارداً، فتضاعف العضّ مبالغاً، كأنك تمص الثبات راضعاً.

---

(٦)صحيح البخاري ٢/١١.

(٧)صحيح البخاري ٩/٦٥.

(٨)صحيح البخاري ٩/٥٨.

● وسادسة تعرف بشجرة الأُنس، تصاحبك عند الوحشة، وتخفف رطوبتها جفاف هفواتك. غرسها النبي صلى الله عليه وسلم لما مَرَّ بقبرين يُعَذَّبان، فكان أن:

(أخَذ جريدة رطبة، فشقها بنصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يارسول الله: لم صنعت هذا ؟

فقال: لعله أن يخفف عنهما ما لم يَيْبسا)(٩).

ففهم بريدة الأسلمي -رضي الله عنه -من ذلك أنها سُنَّة، فأوصى أن يُجعل في قبره جريدان، فما زال الناس يقلدونه في ذلك.

وقد لا نخلو من لم يكدر صفو العمل، أو من تَتَبّع بفضول لما في يد أهل الدنيا من أموال الاستدراج، يكون معه الأرق المتلف، واضطراب النوم، فيضعف الاستعداد للفجر الآتي، ولعل سويعة لك تحت سعف النخيل تخفف لهفك.

● ثم شجرة المفاصلة، شهدت كيف يُتمم استقلال الوسيلة عند المسلم استقلال الهدف، وذلك لما تبع مشرك جيش المهاجرين والأنصارحين سيره نحو بدر، يريد أن يقاتل معهم، حَميَّةً ونُصْرَةً لقومه، فلما وصلوا شجرة ضخمة كانت مَعْلَماً في الطريق، ذَكرتها عائشة رَضي الله عنها: لحق بهم، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال:

(إرجع، فلن أستعين بمشرك)(١٠).

فمضى ذلك أصلاً، لم يطرأ عليه الاستثناء إلا في حوادث ضيقة.

وتحاصر جبهات الأحزاب اليوم دعوة الحق، تبثُ إرجافها، متهمة إياها بتخلف عن ركب سياسي مجتمع، فيقصد الدعاة الأشجار المعالم الضخام، فتشهد بانتفاء اللقاء، وعيب النزول بعد الاستعلاء.

● ولما فقه الناس هذه الأمثال: تتابعوا في سباقٍ يغرسون، فكانت

---

(٩)صحيح البخاري ٢/ ١٤.

(١٠)صحيح مسلم ٥/ ٢٠١.

شجرة ثامنة عرفت بينهم أنها شجرة الافتقار.

وهي شجرة عنب كثيرة الثمر، فكان غارسها إذا مرَّ به صديق له: اقتطف عنقوداً ودعاه، فيأكله، وينصرف شاكراً.

فلما كان اليوم العاشر: قالت امرأة صاحب الشجرة لزوجها: ما هذا من أدب الضيافة، ولكن أرى إن دعوتَ أخاك، فأكل النصف، مددتَ يدك معه مشاركاً، إيناساً له، وتبسطاً، وإكراماً.

فقال: لأفعلن ذلك غداً.

فلما كان الغد، وانتصف الضيف في أكله: مد الرَّجُلُ يده وتناول حَبَّةً، فوجدها حامضة لا تساغ، وتفلها، وقطَّب حاجبيه، وأبدى عجبه من صبر ضيفه على أكل أمثالها.

قال أبو حيان التوحيدي: فقال الضيف:

قد أكلت من يدك، من قَبْلُ، على مَرِّ الأيام، حُلواً كثيراً، ولم أُحب أن أُريك من نفسي كراهة لهذا تشوب في نفسك عطاءك السالف[11].

وما هذه من قصص الأغاليط، ولكنه مَثَل ضرب لك أيها الأخ الداعية فاستمع له، ومجاز تدلف منه إلى العدل، مفتوح أمامك.

فليس فيمن حولك من انبغت له العصمة، واستقام له الصواب، فإن أخطأ معك أخ لك، فلا تجرمنَّك كبوته على الهجران، والتأفف، والضجر، والانتقاص منه، بل ولا على العتاب، إنما تتصبر، وتكظم، وتعفو في سرك، مستحضراً جمال سابقاته، وجياد أفعاله، وحلو مكرماته، إذ لعله قد أعانك على تَوبة، أو ظاهرك عند تعلمك رديفا ورفيقاً وسميراً، أو علَّمك باباً مما علَّمه الله وطريقة.

●فإن استفدت، ونشرت الانصاف، فقد أُذن لك في أن تستلقي تحت شجرة هيفاء، كثيرة الثمار والورود، يخلب نظر الرائي جمالها، وتنُطق

---

(11) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٢١.

المُستمتعَ حمداً لرفيع ذوق غارسها.

اسمها: شجرة الزهد.

وهي شجرة قلبية فريدة، لم يسبق صاحبها أحدٌ إلى استـــنبات مثلها، فجاءت بدعة، ووصفها فقال:

غـــرَسَ الزهدُ بقلبــي شـــــجره
بعــــد أن نقّى بجـهدٍ حـــجَرَه
وسَقـــاها إثْــــــرَ ما أوْدَعـــها
كَبِـــدَ الأرضِ بدمــــع فَجـــرَّه
ومـــتى أبصـــرَ طيـــراً مُفَســـداً
حائماً حـــول حـِماها زَجـــرَه
نمـــتُ في ظلِ ظلـيلٍ تحتَــــــها
روّح الــقلبُ ونَحّى ضَـــــجَره
ثـــــم بايعــت إلهـــي وكــــذا
بيعة الرضوان تحــت الـــشجره

فانظر أطوار رعايته لهـــا، وعنايته بها، وكيف بدأ بتطهير قلبه مما هنالك من أحجار الحسد والرياء والتكبر وسوء الظن، وكيف سقاها بدموع الخشية في الأثلاث الأخيرة، وكيف زجر شياطـــين الإنس والجن لما حامت حول بذرتها تبغي التقاطها، وقلّده، وافعل فعله: تورق لك أختـــها، وتتفتح لك منها الزهور بألوان وعطور، فتنام تحتها كما نام، تستـــشعر شعور أهل بيعة الرضوان، وكأنك فيهم ومعهم، تغمرك نشوة البيعة على المـــوت في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام.

● ووعى الإمام حسن البنا -رحمـــة الله -فن زراعة أشجار الإيمان، فغرس لك الشجرة العاشرة، وهي شجـــرة الحِلم، وصفها مخاطباً الدعاة فقال:

(كونوا كالشجر، يرميه الناس بالحجر، ويرميهم بالثمر).

ولقد أجاد وأفاد، فإن في أكثر الناس سرعة جنوح إلى الجهل، يميلهم إلى تكذيب دعاة الإسلام وإيذائهم بالباطل. ولو جهل الداعية مثل جهل الجاهلين، وقابل الإساءة بإساءة، لعفت رسوم الإحسان واندثرت، ولكنه الصدر الواسع، والاحتساب، والاستغفار لقومه الذين لا يعلمون.

● ● ● أما بعد:

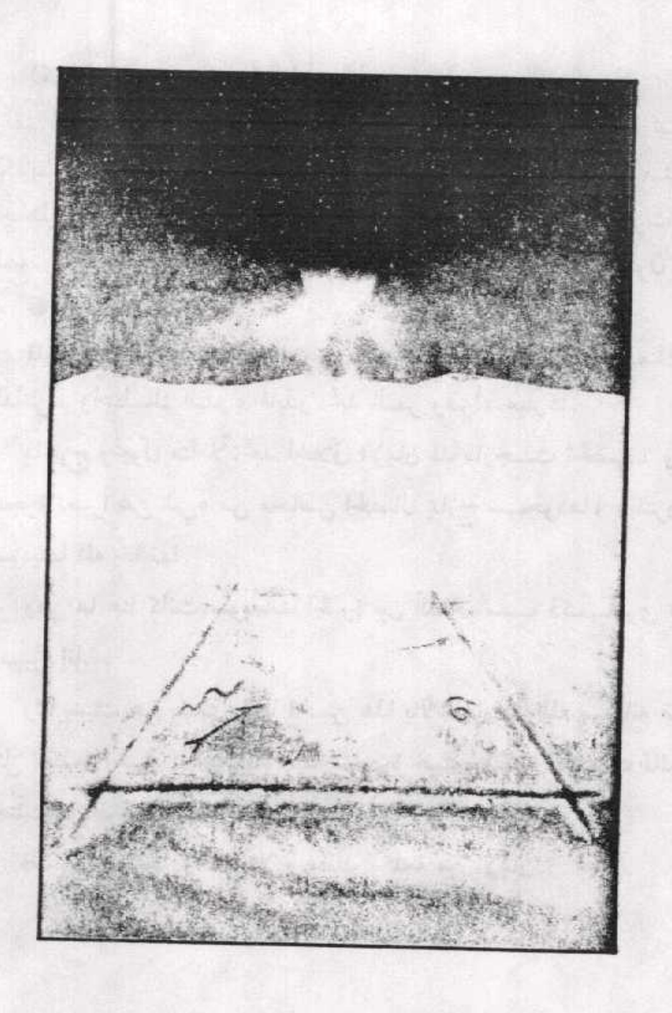
فليس الإمام البنا بآخر غارس في غابة الإيمان، وإنما وضعنا في يدك الفأس، وأعطيناك البذر، فابذر: تجد الثمر وفيراً، مباركاً.

فاخرج وتجوّل متأملاً: تجد أخلاق الإيمان قد مازجت الخضرة، وأن لكل شجرة تعبيراً عن شيء من محاسن الخصال يمازج سجودها، ويقترن بمظهر عبوديتها لله خالقها.

ومن ها هنا كانت سويعات الخلوة بين الشجر سبب ذكرى للغافل، وسبيل إنابة.

ومما ينبيك عن صدق ظننا الحَسَن هذا بالأشجار أن الله سبحانه ضرب مثل الكلمة الخبيثة المنافية للتوحيد كشجرة خبيثة، لكنها ليست قائمة، بل اجتُثّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار.

فليس من شجر واقف إلا ويعظك بكلمة من الإيمان.



حصار الأمل

لوحة من الفن التجريدي الإسلامي

٧ حصار الأمل

هذه الحياة، بجوانبها العديدة، وتبدلات المجتمعات التي تحياها، قد لا يفهمها جيل المسلمين اليوم من دون الرجوع إلى نظرة واقعية لها، متسمة بالبساطة، مستقرئة للمحسوس المشاهَد منها.

ولا ريب في أن تجاوز مجرد الاستقراء، وفهم الأمور معلَّلة مسبَّبة، هو الوضع الأمثل، المؤدي إلى الإيمان الأتم الأوفر، وهو لما يُظن أنه من ظواهر التناقض أوجب، ولذلك جاءت عقيدة الرسلام تُحَلِّلُ وتُعَلِّل، ليحيا مَنْ حَيَّ عن بينة. ولذلك أيضاً حاولت الفلسفات أن تفهم محركات الحياة، فقاربت كاقتراب سقراط من عقيدة التوحيد، أو أبعدت، كبعد جمهور المحاولين.

وبتفسيرات مَنْ شَرَحَ الكمال العَقيدي الإسلامي، أو من خلال محاورات الفلاسفة في محاولاتهم الوصول إلى المثالية: اتسع القول في القَدَر، والجبر والاختيار، وشر تردد النفس بين التقوى والفجور، وحكمة خلق الشيطان وإلقائه للنفوس حتى لتختار الضرر الواضح وتأتي بما لا يأتلف مع الفطرة، وغَلَبَة أهل الشر أحياناً مع كثرة إفسادهم وإرهاقهم للناس، وكثرة محن أهل الخير وصدود الناس عنهم مع عظيم بذلهم ونفعهم للناس، وأمثال هذا.

ولكن حياة اليوم اكتنفها التعقيد المادي من كل أركانها، وتركت كثيراً من المسلمين -كشأن أغلب الناس- في زحمة من المتطلبات والحوائج

تسلبهم التفرغ لتأمل ساكن يحللون فيه ويعللون، ولذلك لم يعد هذا النظر التحليلي بممكن للجميع، فضلاً عن أن يكون مفهوماً للجميع، مع أن المسلم مطالب ومكلف - في الوقت نفسه - بأداء الواجب المفروض عليه في التأثير الخَيِّر في الحياة، بالأمر بالمعروف، والدعوة إليه، والنهي عن المنكر، ملزم به إلزاماً، مُضَيَّق عليه في الاعتذار إزاءه.

ومن هنا تفرض سرعة صراعنا الحاضر مع أشكال الكفر الجديدة أن نلجأ، بسرعة توازيها، إلى بساطة النظرات الواقعية، لإسعاف المسلم القائم على ثغور هذا الصراع بقناعة وشجاعة تدعانه يلج دروب البذل التي تفرضها واجبات رقابته على العالمين، أمماً وأفراداً، وأمره ونهيه، مُقَوِّماً لهم ومُعَدِّلاً.

ولن تجد الحركةالإسلامية ثنية بعيدة عن البدعة تطل بدعاتها من فوقها على منظر بسيط لحقيقة الحياة، شامل في رؤيته، كما تكون إطلالتها على حقيقة الموت. هذه الحقيقة المستغنية عن الدليل والتحليل، والتي تؤذن فيهم وفي الناس كل صباح ومساء.

❑ عظمة المشهود: دليل الغيب.

وذاك من كمال عقيدة الإسلام وتمام فن المؤمنين بها في الدعوة إليها، أنها وأنهم في حرص على أن يسلك المتحيِّر أو المتردد الطريق الأدنى إلى الإيمان.

والمثل في ذلك كمثل الذي استغلقت عليه الغيوب التي أخبر بها الأنبياء عليهم السلام، من البعث والحساب، والجنان والنيران، فتمر به على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، تريه إعجاز ما بين صدعه بالتوحيد فريداً مكذَّباً، وبين صدع المؤذنين بالتكبير قبل نهاية سيرة الراشدين من خلفائه على كل روابي أرضين المدنيات، فتجعل رؤية إعجاز السيرة باب تصديق يدلف منه إلى ما يكاد أن يكون رؤية لذلك الغيب، وتكون قد جعلت الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم سبباً

للإيمان بالله، ولا نعلم فقيهاً يمنع ذلك، غير الباقلاني، فإنه يوجب الإيمان بالله تعالى قبل الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم، وليس لمنعه وجه ظاهر.

هذا، بَلْهَ عن امتلاء القرآن بنداءات بسيطة ودعوة إلى تَفَكُّر في خلق السماء والأرض يقود إلى الإيمان بالله.

وكل ذلك من وجوه كمال عقيدة الإسلام، بما نوعت خطابها لأصناف العقول، ومقادير النباهة، فمن أشكل عليه التعليل: أَدْخَلَته من باب ما يمكن حسّه، وعوَّضَتْ عن التعليل بتكرار التذكير.

والواقعية التي نريد أن نستفيد منها اليوم ليست إلا التي وفرتها عقيدتنا منذ أبعد الأمس، حين أطنبت في التذكير بالموت، وانذر كتَابُها سكرةً لا بد أن تميد لها كل نفس مهما كانت عنها تحيد.

ولهذا وجب على خطة الحركة الإسلامية التربوية أن تعتمد التذكير بالموت ضمن أُسسها، وتأخذ بيد كل داعية ليلمس لمساً قريباً حقيقته، وتفاهة الحياة، فينطلق من بعدُ انطلاقته في البذل، ويتخلص من ثِقلة إلى الأرض تحاول الأموال أن تُركس كل متزين بها إليها.

□ لوحة من الفن الإسلامي

ولئن جمع قادة الحروب جنودهم قبل كل معركة، وحلَّقوا بهم حلقة، ليرسموا لهم على الأرض خطة تعبئة لحصار عدوهم، فإن على قادة الحركة الإسلامية أن يرسموا قبل ذلك لحلقات الدعاة إلى الله خُطة حصار الأجل للأماني الكواذب، يذكرونهم إياه، كما رسمه النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم لأصحابه على أرض المدينة، ففتحت لهم - لما وعوا خطوطه- المدن.

وكان فيهم يومها: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فوصف، فقال:

(خطّ النبي صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخطّ خطاً في الوسط

خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط وقال:

هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به - أو: قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج: أمله، وهذه الخطط الصغار: الأَعْـراض، فإن أخطأه هذا: نَهَشَهُ هذا، وإن أخطأه هذا: نهشه هذا)[1].

وكان فيهم أيضاً: أنس بن مالك رضـــي الله عنه، فوصف، فقال:

(خطَّ النبي صلى الله عليه وسلـــم خطوطاً، فقال: هذا الأمل، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب.)[2]

وفي رواية: مثل ابن آدم جنبه تســع وتسعون مَنِيَّة، إن أخطأته: وقع في الهَرَم.

واكتملت بهذه الخطوط الشريفة لوحة من الفن الرمزي التجـــــريدي فريدة.

إنه الإنسان الضعيف تغزوه الأعراض غزواً فيه إلحاح. عــــــدوى، أو سرطان، أو حريق، أو غرق، أو زلق، أو سقوط، أو اصطدام، أو لدغة، أو تسمم بطعام، أو طلقة تائهة.

فإذا نجا من كل ذلك: كان له في الهرم، وضغط الدم، وارتفــــــاع نسبةالسكر: تأديب أي تأديب.

فإن أطال النَّفَس: اقتص منه الموت.

(قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم.).

تعددت الأسباب، والموت واحد، يحاصر الأمل الشارد الذي يتوهـــم الإفلات حصاراً شديداً.

أمل أبيض وضَّاء، كلما برق: زهت في نظر صاحبه الأموال، والحسان،

---

(١) (٢) صحيح البخاري ٨/ ١١١.

والعطور، والقصور، والمناصب، والشهادات، فينســـــــى مع نظره المنسرح المسترسل متطلبات دعوته، ويصد عينه عن أرض مقدسة يفسد فيها يهود، ولا يعود أنفه يشمّ رائحة شواء دعاة الإسلام في الصـــومال، ولا نتن جثث الأتراك تحت حائط في قرية قبرصية، وتتناسى أذنه وقع أحذية عســـــاكر الهنادك في البنغال...!

لكنه لو نظر ببصيرته لعـــــرف أن أمله الوضاء إنما يلفه محيط أســـود حالك، يتيه فيما دونه من الظلمات ما لم يتبع في مشيه مخرجاً تدل عليه التقوى.

فهو تَرَقُّب جميل، لكنه يتنغص.

وظل ظليل.... لكنه يتقلص.

ومطامع وراء الأودية والمفاوز، وليس صاحبها لما قُدِرَ له بِمُجاوِز.

وأنفاسه قبل كل ذلك... تُعَدُّ.

ورحاله... تُشدّ.

وعاريته... تُردّ.

والتراب من بَعْدُ... ينتظر الخد.

فإنه ليس عُقبى الباقي غير اللحاق بالماضي.

وعلى أثَرِ مَن سَلَفَ... يمشي مَنْ خَلَفَ.

وما ثَمّ إلاّ أمل مكذوب.... وأجل مكتوب.

❑ رؤية تمتد.

و(إن هذا النظر، الذي وراءه التـذكـر، الذي وراءه التـقـوى، التي وراءها الله، هذا وحده هوالقوة التي تتناول شهوات الدنيا فتصفيها أربع مرات حتى تعود بها إلى حقائقها الترابية الصغيرة التي آخرها القبر، وآخر وجودها التلاشي.).[3]

---

(٣) وحي القلم للرافعي ٢/١٩٨، مع جمل سبقتها للزمخشري وابن الجوزي.

و(إن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعداً لها، فإن كان مُعداً لها: عاش راضياً بها، فإن عاش راضياً بها: كان عمره في حاضر مستمر، كأنه في ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها، فلا يستطيع الزمن أن ينغص عليه مادام ينقاد معه وينسجم فيه، غير محاول في الليل أن يبعد الصبح، ولا في الصبح أن يبعد الليل).(٤)

وبمثل هذا النظر والترقب الذي اكسبه الأنبياء عليهم السلام من قاتل معهم من الربيّين: صفت النفوس، وثبتت بركيزة من الطمأنينة سكنت معها وهدأت، فرأت حين زال الاضطراب إطار الحقائق الترابية للشهوات الدنيوية، فزال ما هنالك من تطلّع زائد.

ثبات له من الرسوخ إزاء الأماني مثل الذي كان ما بين رؤية إبراهيم عليه السلام للأفول، فلم يحب الآفلين، وبين بقية من حنيفيته - كادت أن تتصل ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - أرَتْ أمية بن أبي الصلْت حقائق الحياة، فكاد أن يسلم، فصرخ فيما حوله من جاهلية:

اقترب الوعـــدُ، والقلوب إلى اللهو
وحـــــب الحيـــاة سائقــــها

ما رغبةُ النفـــسِ في البقـــاء وأنْ
تحـــيا قليـــلاً والمـــوت لا حِقُها؟

أمامها قائد إلـــيه ،ويـــــحـ
ـدوها حثـــيثاً إليـــه سائقُـــــها

قد ايقنت أنـــها تصـــير كمـــا
كان يراها بالأمـــس خالقـــــها

وإن مــــا جمّـــعت واعجبـــها
مــــــن عيشـــة مُرّة مفـــارقُها

مَن لم يَمُـــــت عَبْطة يمت هــرَما
للمـــــوت كـــأسٌ والمرءُ ذائقُها

(٤)وحي القلم للرافعي ١/ ٧٥

فكانت صرخاته في عُكاظ إرهاصاً يُنبي عن نبوة جديدة، أحييت لمّا جاءت سنن الترقب والنظر الذاكر، فزهد أصحابٌ ورثوها بما هنالك، فانقلبوا يصلحون للإنسان الواهم ما أفسدته شهواته، وما متاع أحدهم عند الوداع غير بُردة قصيرة جعلت عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يبكي، ويعاف الطعام، ويقول:

(قُتل مُصْعَب بن عُمير وهو خـــير منـــي: كُفِّن في بُردة، إن غُطي رأسه: بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه: بدا رأسه.

ثم بسط لنا من الدنيا ما بُسط، وقد خشـــينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا). (٥)

❑ نسيان الموت أول الانحراف

وليس ذاك بكاء الأسى، حَزَناً أن لم يَرَ اخـــاه مصعباً مترفاً، إنما هو بكاء الخشية من بعض مباح أن يكون حسنةً مُعَجَّلة تمنعه الآجل، كمـــا أفصح، ودموع حذر تخرجها روعة تجرد لجهاد يرى ذهاب أبطاله تـــباعاً، فيخلف من بعدهم خلف تكثر في يده الأموال، ويخاف أن يتنافســـوها، فيتوقف نَبْضُ فتوح الهداية.

يشبه بكاؤه ذاك عَبْرة ظلَّ يغص بها حَلْق أبي الـــــدرداء مراراً وهو يقول: (أبكاني فراق الأحبَّة: محمد وحزبه.)(٦).

يُعَبِّر بَها عن وجله من جديد طرأ على ســـمت الجيل الثاني، مثلما يريد بها إظهار ألمه لفراق إخوة كانوا له سبـــب هداية وتثبيت، وفهمهم وفهموه، في تعامل مسترسل، ما التالي لهم - مهـــما حرص- بقادر على أن يسلي عن قلب أبي الدرداء رضي الله عنه تسليتهم عنه. وكأنها حالة ما زالت تستبد بكثير من الدعاة الغرباء، لا يستطيعون لها وصفاً.

---

(٥) صحيح البخاري ٥/ ١٢١.

(٦)الزهد لابن المبارك / ٨٤.

لكنه حزن المجاهد الفقيه، ما كان ليهبط بأبي الدرداء إلى حســـــرات تستهلك الهمّة، بل أدى به إلى صعود سُلَّم التربية، فاعتـــلى درج مسجد دمشق، فقال:

(يا أهل دمشق:

ألا تسمعون من أخ لكم ناصح!

إنَّ مَن كان قبلكم يجمعون كثيراً، ويبنون شديداً، ويأملـــــون بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً). [٧]

ولبث في أهل دمشق سنين يخفف أثر هجـــــمة المال، ثم أورثَ المقال أهله، فكان الرجل منهم يأتي أم الدرداء يستنصحها، فيقول:

(إني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواءً. أجد قسوة شديدة وأمـــــلاً بعيداً!).

فتقول: (اطلع في القبور، واشهد الموتى). [٨]

□ إحياء الأمة بذكر الموت

وقارب الاستدراك في زمن الراشد الخامس أن يتم، لولا السم.

فقد واصَلَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الطريقة، فأرجف بذكر الموت قلوب جيله رهبة، فنفضت رانها، ثم انثنى، فحرك إلى الشهادة حَنانها.

وما أكثر ما وقف عمر موقف أبي الدرداء على درج مسجد دمشق، ليجدد الوعظ القديم، ويقرر لهم:

(إن الأمان غداً لمن حذر الله وخافه، وباع قليلاً بكثير، ونافداً بباق.).

حتى إذا أيقنوا صواب الصفقة: راح يريهم من يومياتهم وواقعهم،

---

(٧) الزهد لابن المبارك / ٢٩١.

(٨) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/ ٣٧١.

بعين التأمل، ما لا تراه عين الغفلة، ويقول لهم:

(ألا ترون في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، وكذلك حتى تُردّوا إلى خير الوارثين ؟

ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيّعون غادياً إلى الله ورائحاً، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، وطُويَ عَمَلُه، ثم تضعونه في صُدع من الأرض في بطن لحد، ثم تَدَعُونَه غير مُوَسَّد ولا ممهَّد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، ووُجِّه للحساب، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ماقدَّم ؟).

ولربما أجلس أحدهم أمامه وعلَّمه، تعليمه عنبسة بن سعيد:

(يا عنبسة:

اكثر ذكر الموت. ، فإنك لا تكون في ضيق من أمرك ومعيشتك فتذكر الموت إلا اتسع ذلك عليك. ولا تكون في سرور من أمرك وغبطة فتذكر الموت إلاضيّق ذلك عليك.)[٩].

حتى إذا ربّى حاشيته، وخلصوا من وهم الأمل نجيّاً: راح ينشر مذهبه في الأمصار، فيرسل على أعيانها، فيأتونه، فيفشي لهم سرّ القبر، وما هو عند أولي الألباب بسرّ.

قال التابعي محمد بن كعب القُرظي رحمه الله:

(لما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعث إليّ وأنا بالمدينة، فقدمت عليه، فلما دخلت جعلت أنظر أليه نظراً لا أصرف بصري عنه، متعجباً، فقال: يا ابن كعب: إنك لتنظر إليَّ نظراً ماكنتَ تنظره !

قلت: متعجباً.

قال: ما أعجبك ؟

قلت: يا أمير المؤمنين: اعجبني ما حال من لونك، ونحل من جسمك، ونفي من شَعرك.

---

(٩)طبقات ابن سعد ٥/ ٣٧٢.

فقال: كيف لو رأيتني بعد ثلاثة، وقد دلِّيتُ في حفرتي، وسالت حدقتي على وجنتي، وسال منخري صديداً ودوداً ؟). (١٠)

فشاع خبره في الآفاق، حتّى إذا أرسل إلى أعيان الكوفة: بادروه مبادرة، وجلبوا شاعرهم أعشى همدان معهم، يعلن له قناعتهم، وبراءتهم من أمل يطارده عمر، قد عرفوا جدّه في إجلائه عن دار الإسلام.

وينطلق الأعشى بين يدي عمر...

وبينما المرءُ أمسى ناعمـاً جذلا
في أهلهَ معجباً بالعيش ذا أَنَقِ
غِراًّ، أُتيحَ له مِن حَيْنه عَرَضٌ
فَمَا تَلَبّثَ حتى مات كالصَعِقِ
ثُمَّتَ اضحى ضحى مِن غبِّ ثالثة
مُقَنَّعاً غير ذي روح ولا رَمَقِ
يُبكى عليه، وأدْنوهُ لُمُظلمةٍ
تُعْلَى جوانبُها بالتُرب والفلَقِ
فما تَزَوَّدَ مما كان يَجمعُهُ
إلا حَنوطاً وما واراهُ مِن خِرَقِ
وغيرُ نَفْحَةِ أعوادٍ تُشَبُّ له
وقلَّ ذلك من زاد لمُنطلقِ (١١)

فتنهمر هاطلة دموع عمر، وتختلط بأصوات نشغاته، ليتجاوز تَرادُّ صَداها دهوراً تتعاقب، يقود المربين المسلمين.

❑ عودة إلى الرشد

ولئن توالى اليوم فراق الأحبة ووداع الرعيل الأول المتجرد المتواضع المؤسس للحركة الإسلامية المعاصرة، لنبكيه مع هجمة المال بكاء أبي

(١٠) الزهد للإمام أحمد / ٢٩٥.

(١١) الأغاني ٦/ ٥٧٠، والحنوط هو الطيب الذي يطيّب به الميت، والأعواد: أعواد البخور

الدرداء، أو بكاء سلمان الفارسي، فـــي رواية أخرى،حذراً وغربة، حين افتقدا، رضي الله عنهما، حزب محمد صلى الله عليه وسلم، فإن بكانا لا يحق له أن يهبط بنا إلى تأوهات تجاوزتها همتهـــما، ولا بد لنا - مع بداية مرحلة جديدة تُرشِح دعوتنا لملء فراغٍ تركه فشل التطرفـات القـومـيــة والشيوعية- من ارتقاء درجات الاســـتدراك التربوي، هامسين لكل داعية بمواعظ عمر، لتعود لنفسه فتوتها وإقدامها، وتطلعها الأخروي، فإنَّه قد طال التجوال في البطالة، ولربما حيَّر، وامتد الركون إلى الاغترار وكأنه قد غيَّر.

وكـــأنَّ بالـــداعِ قـــد يبـــكي
عليـــه أقربـــــــــوهُ
وكـــأن القـــوم قـــــد قا
موا فقــــالوا :أدركـــوهُ
سائلـــوه، كلّمـــوهُ
حرّكـــوه ، لقّـــنوهُ
حرّفـــوه ، وجّهـــوهُ
مـــدّدوه، غمضـــوهُ
عجّـــلوه لرحـــيل
عجّـــلوا لا تحبســـوهُ
ارفعـــوه، غســـلوهُ
كفـــنوه ، حنّـــطوهُ
فاذا مـــا لُـــفَّ فـــي الأ
كفـــان قالـــوا: فاحملوهُ
أخرجـــوه فـــوق اعـــوا
دِ المـــنايـــا ، شـــيعوه

فإذا صلّوا عليه
قيل: هاتوا واقبروهُ

فإذا ما استودعوه
الأرض رهناً تركوهُ

خلّفوه تحتَ رمسٍ
أوقروهُ، أثقلوهُ

أبعدوهُ، أسحقوه
أوحَدوه، أفردوهُ

ودّعوه، فارقوه
اسلَموه، خلّفوه

وانثنوا عنه وخلّوه كأن لم يعرفوهُ (١٢)

(١٢)ومن الممكن ايضاً أن تقرأ القافية ساكنةً .

تلالنا

٨ الهامدة

لئن رأينا أبا الدرداء رضي الله عنه بعد فراقه حزب محمد صلى الله عليه وسلم باكياً، فإنه سرعان ما انقلب ضاحكاً، ليقول:

(اضحكني:

مؤمل دنيا، والموت يطلبه.

وغافل، ليس بمغفول عنه.

وضاحك بملء فيه ولا يدري أرضى اللهَ أم أسخطه.). [1]

وإنما هو ضحك التعجب من صورة حياتية يشاهدها كل مراقب لحياة الناس، يرى خلالها أنماطاً من الغفلة تحرف شدةُ طمع تصاحبها بعضَ الناس عن رؤية مصير رهيب يتخطف غيرَهم من حولهم، وما لهم أدنى ضمان لدفعه لو جاءهم كما يجيء أولئك.

فالنـاس فـي غفَلاتهـم
ورحـى المنـيّة تطحـن

وهي ضحكة قد تهجم على صاحبها لأول وهلة حين يحار في تفسير هذه الظاهرة، لكنها سرعان ما تتحول إلى شفقة ورحمة تأبى إلا أن تصدم الغافل صدمة إيقاظ تخرجه عن سكونه.

رحمة حركت أبا الدرداء برفق، فأتى إلى هذا الذي أضحكه، فنقر بإصبعه على كتفه، فالتفت، فهمس في أذنه أن:

(١)الزهد لابن المبارك / ٨٤/ ٥٥٤.

(ويحك !!

كيف بك لو قد حُفِرَ لك أربعُ أذرع من الأرض؟)[٢].

وما ندري مدى حظ ذاك المرء من التوفيق، إن كان انخلع من غفلته أم سَدر فيها، ولكنا ندري أن همسة أبي الدرداء ما زالت حية، وأن ما ذرعه لم تزده الأيام سعة وطولاً، وأن قبل هذه الأذرع الأربعة وبعدها قصة متصلة المشاهد، يرويها الرواة لمن يلقي السمع وهو شهيد.

❏ يوم الحصاد

مشهدها الأول: يوم الحصاد: يوم يحصد الموت الروح كما يحصد المنجل الزرع.

وليس في التشبيه مفارقة، فإن حصاد هذه الأرواح يحوي مثل ذلك من الفوائد، من بين موت شهادة ظاهر نفعه، وموت دون ذلك يكون للغير سبب اعتبار وادكار.

وذلك ما صوره الشاعر حين خاطبك فقال:

ما أنت إلاَّ كـــزرع عند خُضرته

بكلِ شيء من الآفات مقصـــودُ

فإن سَلِمـــَت من الآفات أجمعها

فأنت عند كمال الأمر محـــصودُ

أو قد يسمى هذا اليوم: يوم الصراخ، وذاك حين يعرق الجبين، ويتتابع الأنين، وتكون الغرغرة، وتبرد الأعضاء، وتستبد السكرات، فيفتضح الضعف، فيعلو الصراخ......

باكيات عليك يندبن شَـــجْوا

خافقات القلوب والأكـــبادِ

يتجـــاوبن بالرنين ويذرفن َ

دموعاً تفيض فيـــض المزادِ

---

(٢)المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

فيأتي من يحبسهن جانباً، ليغسلوك على عجل.
عجلة يضجر الغاسل معها إن تباطأ من يحمي الماء، فينادي: الا وراءنا أشغالنا فاستعجلوا!!
كما هو الخلق القديم في الغاسلين، منذ عصر من قال:

كأن لم أكن إذ احتـــــث غاسلي
وأحكم درجـــي في ثياب بياض

ومـا هي إلا أذرع أربعـة من القمـاش الرخيص، كـتلك من الأرض السبخة، يحملك بعدها أصحابك على الرقاب.

فلا تنس يوماً تســــــجّى على
سريرك فـــوق رقاب النَـــفَر

فـإن كنت صـالحـاً: اسـتـبـشـرت تلك السـاعـة، ولبـثت تصـيح طرباً: قَدِّموني، قَدِّموني، تصدق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال:
(إذا وُضُعت الجنازة فاحتـملها الرجـال على أعناقـهم، فإن كـانت صالحـة قالت: قـدموني، وإن كـانت غير صـالحة قـالت لأهلها: ياويلهـا ! أين يذهبون بها.
يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمع الإنسان لصعق.).[٣]

❑ ثم يوم الرقاد

وتنتقل القصة إلى مشهد ثان يسمى: يوم الرقاد الطويل، يبدأ بملَكين يفتنان الميت، ذكر خبرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال:
(أوحي إليّ أنكم تُفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال، فأما المؤمن أو المسلم فيقول: محمد جاءنا بالبينات، فأجبنا وآمنّا. فيقال: نَم صالحاً،

(٣)صحيح البخاري ١٠٣/٢ ، ١١٦/٩.

علمنا أنك موقن.

وأما المنافق أوالمرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.) [٤]

وذلك هو الحوار المذكور في الحديث الآخر، انَّ:

(العبد إذا وضع في قبره وتوليّ وذهب أصحابه، حتى إنَّه ليسمع قرْع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه.

فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، محمد صلى الله عليه وسلم؟

فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك اللّه به مقعداً من الجنة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: فيراهما جميعاً.

وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس.

فيقال: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ.

ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين.) [٥]

فيستيقظ الدود لتلك الصيحة، ويهجم هجومه، فيستسلم الرجل، ويذعن، ويأخذ يقول، كأنه يستزيد:

ضعوا خدّي على لحدي ضعـــوه
ومن عَفْر الـــــتراب فوسّـــدوه
وشُقّوا عنــــه أكفــاناً رقاقـــاً
وفي الرمْـس البعيــــد فغيّــبوه
فلو أبــــصرتموهُ إذا تقضّـــت
صبيحه ثالـــث: انكرتمـــــوه
وقد مالـــت نواظرُ مقلتـــــيه
على وَجـــناته، فرفضـــتموه

(٤)المصدر السابق، والصفْحة ذاتها.
(٥) صحيح البخاري ١٠٨/٢.

فهنالك يكون السكون،حيث تصفر الريح على تلال هامدة واطئة، فيصل صفيرُها إلى آذان أُمهات ثكالى يخرجن ببلاهة يقودهن الصفير إلى قبور أبنائهن، لتسأل كل واحدة منهن ابنها:

بأي خـــــديك تَبــــدّى البلى
وأي عينـــــيك إذاً ســــــالا؟

فيجيبهن صوت بعيد، من حيث القبر الأخير المنزوي:

لم تبق غـــــير جماجم عَــرِيت
بِيضٍ تلوح، وأعــــــظمٍ نَخِرِه

ويثني آخر:

لا يدفعون هَواماً عـــــن وجوههم
كأنـــهم خـــشب بالقاع منجَدِلُ

أو يرد صوت ثالث:

هجودٌ ولا غـــــير التراب حَشيّة
لجنـــبٍ، ولا غـــير القبور قِبابُ

أو يخبرهن رابع:

قد أصـــبحوا فـــي بـــرزخ
ومحلـــــــة متراخـــــيه
ما بينـــــهم متفـــــاوت
وقبـــورهم متدانــــــــيه

فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل موحشين، وذوي محلة متشاسعين، لا يستأنسون بالعمران،ولايتواصلون تواصل الإخوان. قد اقتربوا في المنازل، وتشاغلوا عن التواصل، حتى طحنهم بكلْكَله البلى، وأكلهم الثرى. [٦]

وبينما هم كذلك إذ جاءهم من ليس هو بفُضولي، وعساه عند عمر

(٦)أسطر لبعض الزهاد .

ابن عبد العزيز أو عنبسة أو القرظي يتدرب، فيسألهم:

أين الوجوه التـي كـانت محجّـبة   من دونها تُضـربُ الأسـتار والكُلَلُ

ويميل بأذنه يريد جواباً منهم ما هم بقادرين عليه، فتنوب عنه التلة الصغيرة تجيب.....

وأفصحَ القبرُ عنهــم حين ساءلَهم
تلك الوجوهُ عليــها الدودُ تقتــتلُ
قد طالَ ما أكلـوا دَهْراً وما نعموا
فأصبحوا بَعد طول الأكـل قدْ أُكلوا

فيتولى عنهم بجناح من الرهبة، خفيض، ودمع على الخدين يفيض، يودع ويندب ويقول:

أهل القـــبور أحبــتي
بعَد الجـــذالة والســرورْ
بعد الغَضــارة والنضــا
رة والتنــعّم والحُـبورْ
بعد الحِـسان المؤنســات
وبعــد ربّات الخـدورْ
أصبحتــمُ تحــتَ الثــرى
بين الصفــائح والصــخورْ

▢ حساب وكتاب

فيظلون بعد وداعه في انتظار مشهد ثالث يسمى: يوم البعث.

يوم انشقاقُ الأرض عـن أهلِ البلى
فيها ، ويبـدو السخـط والرضوانُ
يوم القيامة ، يوم يُظلــم ظلم
الظـالمين ويشـــرق الإحسانُ

(أنْ تقـولَ نفسٌ: يا حَسْرَتا على مـا فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله.)وتنادي

أخرى: (هل إلى مَرَدٍّ من سبيل)؟
وتستغيث أخرى: (يا ليتنا نرد فنعمل غير الذي كُنَّا نعمل).
فهنالك ثالثة يكون الوجل:

هناك إن كنـــتَ قدَّمـــت مُدخـــرا
تُسقى من الحوض ماءً غير ذي أسَنِ
وتُنشر الصحْفُ فيهـــا كل مُحْتقب
من المخازي وما قدّمـــت من حَسَنِ
قد كنت تنسى وتلك الصحفُ محصية
ما كنتَ تأتي ، ولم تَظلِم ولم تَخُنِ

فالسعيد ذاك اليوم من كانت له في يومنا هذا بهذا عِبْرة، تَستخرِج من عينه وقلبه عَبرة، تنطق لسانَه رهبة وأسفاً، ليدندن في اللّيالي:

واحَســـْرتي، واشِـــــقوتي
مـــن يوم نشر كتابيـــــــه
واطـــولَ حُزنـــي إن أكـــن
أوتيـــــــتُه بشماليـــه
وإذا سُئلـــت عـــن الخَطـــا
ماذا يكـــــون جوابيـــه؟
واحـــرَّ قلبـــي أن يكـــونَ
مـــع القلوب القاســـــيه
كــــلا ولا قدمــــتُ لـــي
عمـــلا ليـــوم حسابـــيه
بــــل إننـــي لشـــقاوتي
وقســـاوتي وعــــــذابيه
بـــارزتُ بالــــــزلات في
أيـــام دهـــــــــرِ خاليه

من ليس يخفى عنه من
قُبح المعاصي خافيه

□ ما بعد هذا إلا التشمير

فأما صاحب القلب الحي فنقُصُّ له قصة الأيام الثلاثة هذه. وأما أموات القلوب فذرهم في ركستهم يتخبطون.

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلههم الأَمَلُ، فسوف يعلمون). تَمَتُّعَ آكلةِ الخَضِرَة التي حدثنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(آكلة الخَضِرَة أكلت.

حتى إذا امتَدت خاصرتاها: استقبلت الشمسَ.

فاجترت، وثَلطت، وبالت.

ثم عادت فأكلت.)

هكذا كالخرفان تماماً، يأكلون وينامون، فيتغوطون، فيعودون إلى الأكل، ولا شيء آخر.

تعست حياتهم !!

فتدبر أمرك أيها المسلم وتأمل. وقف ولا تعجل.

فإنك لممتحَن، وبكسبك مرتَهَن.

وإنه:

سيأتيك يوم لست فيه بمكرَم
بأكثر من حثْو التراب عليكا

بل يرى أصحابك ذلك غاية الإكرام لك.

يقولون: كان رحمه الله صديقاً لنا، ولا بد أن نكرمه، وواجب أن نحضر لنحثو التراب عليه.

وكم قد رأينا فتى ماجداً
تفرّع في أسرة ماجده
رماه الزمان بسهم الردى
فأصبح في التلة الهامده

فاذكر، واتعظ، ولا تنشغل بالأمل عن ذكر قصة الحصار والحصاد والأجل، عَسَيتَ بفضل الله تنجو، وتفوز ببعض ما المؤمن يرجو...

خط رسول اللّه خطوطه، فاستيأس الأمل، فبات الأصحاب يحبون أحب الأمرين الى اللّه: حياتهم أو الموت.

إلا الفاروق عمر رضي اللّه عنه، فإنه جمع بين هجر الأمل، والجزع من الموت وكراهته، فاتحاً بجمعه هذين النقيضين باباً يلج الموفق منه الى زيادة في فقه الدعوة.

وذاك حين طعنت المجوسية أبا حفص طعنتها، فثعب جرحه دماً كثيراً أخرجه الى جَـزَعٍ وافقَ دخولَ عبد اللّه بن عباس، رضي اللّه عنهما، عليه، فَـفَـغَـر فاه مستغرباً، فقال عمر:

(أمّا ما ترى من جزعي، فهو من أجلك وأجل أصحابك) [1].

وبهذه الحروف اختتم رضي اللّه عنه سيرة أتعبت كل دعاة الإسلام من بعده.

فالحياة يطلبها الغيور طلباً، ويجزع لورود الموت جزعاً، لما سيحول بينه وبين خدمة المسلمين والقيام بأمور دعوة الإسلام.

وغدا هذا المفهوم، بهذا المقدار، يمثل الوجه الآخر للتربية الحركية الكابحة لانطلاق الآمال الدنيوية، يمارس الداعية خلال نظره المتكرر إليها ايجابية تبعده عن يأس سلبي وتزهيد بالعمل يسببه نظر ناقص الى مجرد كبت الآمال.

(١) صحيح البخاري ٥/١٦

ولئن كشفت هذه الكلمات في نهاية خلافة عمر- من جانب - للغافلين سر ما رآه المسلمون منه من تعب وسهر وتفكّر، فتأهبوا للاقتداء، فألهاهم عبد الله بن سبأ زمن عثمان رضي الله عنه، وأذهلهم، فإن تشميراً رآه الناس في بداية خلافة علي، رضي الله عنه، كان بحاجة - من جانب آخر - بعد ذاك الذهول، إلى كلمات أخرى تعظهم، وتعيب عليهم أملاً وجد له أثناء سنوات الفتنة مجال نمو، بردت معه همم المقتدين.

ومن هذه الحاجة نشأت مدرسة الكوفة في التذكير بالموت، إذ طفق علي رضي الله عنه يجمع الناس في مسجد عاصمته، ويصارحهم، ويقول:

(إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، وإن اتباع الهوى يصد عن الحق). [٢]

وتنتدب جمهرة من فقهاء أصحابه نفسها لمعاونته، فيقوم الصحابي الأغلب بن جشم العِجْلي بعده، فينشد بين يديه قصيدته التي مطلعها:

المرء تـــوّاقٌ إلى ما لم ينـــــل

والموت يتــــلو، ويلهيه الأمـــل

فيتلوه سيد زهاد التابعين: أُويس بن عامر القرني، فيقول:

(يا أهل الكوفة: توسّدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم).

حتى إذا قُتل علي بعدما خشعت القلوب وادكرت: استمرت ثلة من أصحابه على سمته في الوعظ، فكان الربيع بن خثيم يقول لهم:

(أكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله). [٣]

ويحفر له قبراً، ويأخذ ينزل فيه كل يوم ويتمدد، ثم يقوم يذكر لهم

(٢) الزهد لابن المبارك/ ٨٦

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ١٨٤

مشاعره لما يكون بقعره.

ويذكر سعيد بن جبير لهم مقدار تصفية كلمات علي لقلبه، فيقول:

(لو فارق ذكر الموت قلبي: خشيت أن يفسد عليّ قلبي). (٤)

وكل هؤلاء: سعيد، والربيع، وأويس، رحمهم الله، والأغلب رضي الله عنه، من ثقات أهل الكوفة الذين رباهم علي رضي الله عنه، فلما ماتوا: أورثوها لآخرين يحفظون للكوفة سمتها، فكان عون بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود الهذلي يرتقي المنبر ويسألهم:

(كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، ومنتظر غداً لا يبلغه. لو تنظرون الى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره). (٥)

فإذا نزل: صعد عمر بن ذر، فخطبهم:

(أما الموت فقد شَهَر لكم، فأنتم تنظرون اليه في كل يوم وليلة، من بين منقول عزيز على أهله، كريم في عشيرته، مطاع في قومه، الى حفرة يابسة وأحجار صُم، ليس يقدر له الأهلون على وِساد إلا خالطه فيه الهوام، فوساده يومئذ عمله، ومن بين مغموم غريب، قد كثر في الدنيا همّه، وطال فيها سعيه، وتعب فيها بدنه، جاءه الموت قبل أن ينال بغيته، فأخذه بغتة. ومن بين صبي مرضَع، ومريض موجَع، ورهن بالشر مُولعَ، وكلهم بسهم الموت يُقرع).

فلما مات هؤلاء النفر، واجتمع علمهم وعلم شيوخهم عن علي في سفيان الثوري: تولاها طريقة، واتخذ الموت نشيداً، حتى قال أحد تلامذته:

(ما جلست مع سفيان مجلساً إلا ذكرَ الموت، وما رأيت أحداً أكثر ذكراً للموت منه). (٦)

---

(٤) الزهد لأحمد بن حنبل ٣٧١

(٥) الزهد لابن المبارك/ ٤

(٦) تاريخ بغداد ٩/ ١٥٧

وهكذا أعطت مشيئة الله تعالى مدرسة الكوفة من بعد عمر بن الخطاب دَورها في رقابة سواء سبيل أمة الايمان، وحفظه من الانحراف وطغيان الآمال، وشرّفها، فتمثلت بها بقية نهي عن الفساد، تكثر حيناً، أو تقل من دون انقراض، ليست دعوة الاسلام المعاصرة غير استرسال في كفالة القدر لوجودها، وما وراثتنا لها إلا وراثة قربى في النسب، واشتراك في المورد.

❑ فبرز لها بالشام عمر

وكان الذي رويناه من استدراك عمر بن عبد العزيز في أواخر المائة الأولى حلقة ضمن دعوة البقية الرقيبة على سير القرون، اتصلت بمدرسة علي الكوفية عن طريق عون بن عبد الله، وعمر بن ذر، وأعشى همدان الشاعر، الآنف ذكرهم، اتصالاً اعتيادياً كما هو شأن العلم في تقلبه في البلاد، وشأن البقية الناهية في تقلبها عبر القرون، لكنها حلقة استطاعت أن تستأثر بحيازة إعجازين قصرت عنهما الحلقات التي بعدها:

● إعجاز اكسبه إياها موضع الخلافة العالي، فشخصت القدوة المهابة من بعد بعض انقطاع، فتسارع الإصلاح، فاختُصر الزمان، فكانت هنيهة قصيرة أثّرت دهوراً طويلة.

● وإعجاز، بلاغي آخر، وليد تفكر عمر، وربيب نغمة من فصاحة عربية كانت ما تزال تنساب من فيه، بها فضح عيب تمتع جيله بأسلاب الهالكين، وبها رادَ لقرون تليه خبر موت أعلمه حدسه أنها ستكون عنه من اللاهين، فحدثها حديث صدق عن:

(قبور خرقت الأكفان، ومزّقت الأبدان، ومصّت الدم، وأكلت اللحم.

تُرى: ما صنعت بهم الديدان؟

مَحَت الألوان، وعفرت الوجوه، وكسرت الفقار، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء.

تُرى: أليس الليل والنهار عليهم سواء؟

اليس هم في مدلهمة ظلماء؟

كم من ناعم وناعمة أصبحوا وجوههم بالية، وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دماً وصديداً، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً، حتى عادت العظام رميماً.

قد فارقوا الحدائق، فصاروا بعد السعة الى المضائق).

ثم راح ينادي حتى صحل صوته:

(يا ساكن القبر غداً، ما الذي غرّك من الدنيا؟

أين دارك الفيحاء؟

وأين رقاق ثيابك؟

ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى، وبأي خديك يبدأ البلى؟)

وبمثل هذا: استأسر فقهاء الأمصار لعمر، فجمع قلوبهم حوله، وجعلهم له أعواناً في تعميم رشده، وأخرجهم الى مشاركة جماعية في تعليم الأمة وتربيتها، متناسقة مع أسلوبه، أغنت حكمه عن سيف وحساب، واستثمر بها طاقات خير دفينة مغروسة في أصل فطرة الناس، قدم لها منه القيادة، فقدمت له منها المتابعة.

❑ مدرسة البصرة تؤيد

ولئن أسرع عنبسة أو القرظي الاستجابة لعمر، في أرهاط من الشاميين والمدنيين، فإن الحسن البصري، عَبر سيادته الجيل الأوسط من التابعين طراً، وبتأثير ما اقتبسه من علي ومدرسته الكوفية، قد أنزل البصرة مكانة التقدم في التأثير التربوي في الأمة من قبل أن يحكم عمر، مكنها من بعد أن تسبق الربوع الأخرى في إعادة رسم خطوط حصار الأمل، ورواية قصة الرقاد الطويل، وتأكيد مذهب عمر وترويجه، حتى غدت مواعظ الحسن أداة تربوية، تكتب في نسخ وتوزع مع بريد الخلافة كما توزع الصحف اليوم، فيجد المسلم المرابط في أقصى الثغور في شدة

نبراتها حماسة يهتز بها للشهادة قلبه، تعادل رقة يرجف لها بدن المتعلم العاكف، والساذج المزارع، والتاجر الساعي.

وهكذا وافقت دمعات الرشد فهماً لدى إمام البصرة، وبدأت الآمال تقصر بمآل الى الردى يصوره الحَسَن، ويحذرها أهوالاً تستقبلها ليست سكرات الموت إلا بواكر حسابها وعتَب أبوابها، فراح ينادي:

(المبادرة، المبادرة.....

فإنما هي الأنفاس لو حبست: انقطعت عنكم أعمالكم، أنكم أصبحتم في أجَل منقوص، والعمل محفوظ، والموت - والله - في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله عز وجل في كل يوم وليلة....

لقد فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُب فرحا.....

وإن أمرأ هذا الموت آخره، لحقيق أن يُزهد في أوله....

وإن أمرأ هذا الموت أوله، لحقيق أن يُخاف آخره). [٧]

☐ميزان بصري في فقه الدعوة

وصاغ الحسن خلال ذلك ميزاناً ايمانياً يقدم له الواقع المرئي كفاية من دلائل الاقناع، ربما نشتق له اسم: (ترجيح التخويف)، ساقه في صورة خطاب، فقال:

(إنك والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمْناً، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف). [٨]

وهو ميزان يمثل بعضاً مما أضافه الحسن الى فقه الدعوة.

فالخوف العاجل عنده، المؤدي الى التقوى، المؤدية الى أمن آجل في ظلال الجنان: خير من مدّ عريض للنظر الى صفات الله سبحانه في الرحمة واللطف والغفران.

---

(٧) الزهد لأحمد بن حنبل/ ٢٨٥ ومصادر أخرى

(٨) الزهد لابن المبارك / ١٠٢

وكلاً من الحالتين تُـراد، والأمر في حقيقته معلق بنسبية واضحة، ربما أوجبت تخفيف رهبة البعض بأبواب من الرجاء أغلقتها عليهم شدة الخشية، ولكن هذا المعدن فريد، والغرور يلف الجمهرة العظمى، وما من دواء له إلا الاخافة بقصة التلال الهامدة.

وفي التنبيه على هذه النسبية يقول ابن الجوزي:

(إذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم، وفسدت في الخير أعمالهم: أمرناهم بذكر الموت والقبور والآخرة.

فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت، وأحاديث الآخرة تُقرأ عليه، وتجري على لسانه، فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد الا انقطاعه بالمرة.

بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى، الكثير الذكر للآخرة، أن يشاغل نفسه عن ذكر الموت، ليمتد نَفَس أمله قليلاً، فيصنّف، ويعمل أعمال خير).[9]

□ مدرسة بغداد تجنح للبساطة

وقد أضافت المدرسة البغدادية من بعد تلك المدارس تطويراً مهماً إلى فقه الزهد وكبت الآمال. يوم أدخلت عنصر البساطة في التذكير على لسان رائدها بِشر بن الحارث الحافي لما أتاه آت وطلب منه الموعظة فقال له:

(ان في هذه الدار نملة تجمع الحَبَّ في الصيف، فتأكله في الشتاء، فلما كان يومٌ: أخذت حبّةً في فمها، فجاء عصفور، فأخذها والحبّة، فلا ما جمعت أكلت، ولا ما أمّلت نالت).[10]

هذه هي الحياة عند بِشر.

إنسان يجمع، فيأتيه الموت، فأخذه وما جمع.

(٩) صيد الخاطر/١٥٨ طبعة الغزالي

(١٠) تاريخ بغداد ٣/ ٣٢١

هكذا، بلا أبيات شعر، ولا الوان من الجناس والبديع نطلبها اليوم تشغلنا عن جوهر المواعظ.

لأولي الألباب كفاية بيوميات العصفور والنمل.

ثم بلغت هذه البساطة البغدادية ذروتها لما تولى الامام أحمد زمام التربية، فذهب فيها لأبعد مما ذهب قرينه بشر، فسكت، حتى أن الكتب تكاد أن لا تورد له في المواعظ قولاً، وعوّض تلامذته وأجيال الأمة عن ذلك بوجه معبر كأنه يطلع الى القيامة، وصبر على العذاب والإغراء ثبتت به الأمة إزاء دعاية المبتدعة، وسيرة في التعفف والتقلل تستحي منها نوايا الإثراء.

فلما مات سنة احدى وأربعين ومائتين، وانتقل شيخ البخاري الحسن ابن عبد العزيز الجروي من مصر الى بغداد، وسكنها، وصار في عداد البغداديين: رأى ضرورة استمرار القدوة الصامتة، فلم يأخذ من إرث أبيه شيئاً، لشبهة خالطته، وقال:

(من لم يردعه القرآن والموت فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع).[11]

قال صاحب تاريخ تنيس:

(وكان أبوه ملكاً على تنيس، ثم أخوه علي، ولم يقبل الحسن من إرث أبيه شيئاً، وكان يُقرن بقارون في اليسار).[12]

▢ التوبية بالاعتراف

وطفق المربون بعد أحمد والحسن الجروي يمارسون طريقتين في التربية:

فمن حاز مرتبة أحمد وزهده وورعه وحياة قلبه: قلّده في سكونه، وترك حاله تخبر الأبصار.

ومن لم يحز مثل سمو أحمد، ولبث دون ذلك: سلك طريقة

(١١) طبقات الحنابلة ١/ ١٣٥

(١٢) تهذيب التهذيب ٢/ ٢٩٢

الاعتراف، فيستفزُّ الأسماع، كما استفزها الخليفة العباسي الراضي بالله، لما جمع ببغداد الغافلين، وحاول من بعد المتوكل أن يتشبه بعلي وعمر بن عبد العزيز ويقلد طريقتهما، فراح ينشد لهم من نظمه:

كل صفو الى كَدَر
كل أمنٍ الى حَذَرْ

ومصير الشباب للمو
ت فيه أو الكِبَرْ

أيها الآمل الذي
تاه في لُجّة الغَرَرْ

أين مَن كان قبلنا
درَسَ الشخصُ والأثَرْ

سيردُ المعارَ مَن
عمرُه كله خَطَرْ

ربِّ إنني ذخرت عنـ
ـدك أرجوك مُدّخرْ

إنني مؤمن بما
بيّن الوحي في السوَرْ

واعترافي بترك نفـ
ـعي وايثاري الضَررْ

رب فاغفر لي الخطيـ
ـئة يا خَيرَ من غَفَرْ (١٣)

(١٣) تاريخ بغداد ٢/١٤٤

أو كما استفزها بالأندلس آخر، حين راح يعترف:

الى كم أقـــــولُ ولا أفعـــلُ
وكــم ذا أحـــوم ولا أنـــزِلُ
وأزجر عيـــــني فلا ترعوي
وأنصح نفـــسي فلا تَـقْـــبلُ
وكم ذا تعلّـــــل لي، ويحَـها
بعَلٍّ وســوف وكم تمطُـــــل؟
وكم ذا أؤمل طول البَــــــقا
واغفُـــــل والموت لا يغــفلُ؟
وفي كل يومٍ يُـــــــنادي بنا
منادي الرحــــيل: ألا فارحــلوا
كأن بي وشيــــــكاً الى مصرعي
يُــساقُ بنعـــــــشي ولا أمهلُ (١٤)

☐ وبعد . .

وبعد يا داعية الاسلام . .

إنّ من جدّ وجد، وليس من سَهر كمن رقد.

فلا تكن ممن تضمه الكتائب، وقلبه عن المشاركة غائب.

وهذا الموت منك قيد شبر الشابر.

وهذا دبيب الليالي يُسارَق نفسك ساعاتها.

وإن سلَع المعالي غاليات الثمن، وإنما ثمنها اتباع مدارس الكوفة والشام، ومدرسة إمام البصرة الحَسَن.

فانظر لنفسك . . . .

واغتنم وقتك . . . .

(فإن الثواء قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف. والاغترار غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير.) (١٥)

وفقنا الله وإياك.

---

(١٤) نفح الطيب ٤/ ٢٧٥

(١٥) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي/ ١٦

١٠ لا .. يا قيود الأرض

لئن كان الدعاة الى الله قد فقهوا طريق الاستدراك، ورفضوا الانصياع للفساد الذي استشرى، وتمردوا على عملية الترويض، وبدأوا جهود تثبيت وتربية لأولي الفطر الصحيحة، فإن غيرهم بات يتألم لواقع المسلمين ويتأوه، ولا يعدو إبداء الحزن، وقبع في بيته أو مسجده، يلفه اليأس، تاركاً دعاة الإسلام وحدهم في المعركة، يظن أنه بحزنه قد أبرأ ذمته، بل ربما يظن أنه قد كسب المناقب.

وليس الأمر ما ظن وإن اقترن بحزنه ما يثاب عليه ويؤجر، فإن المسلم الذي يبغي درجات الكمال يحزن لواقع المسلمين، لكنه يترك بيته وراءه ظهرياً، ويتصدى للناس، واعظاً وناصحاً ومربياً، وخائضاً بهم دروب الجهاد.

قال ابن تيمية رحمه الله:

(قد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، فيكون محموداً من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عموماً، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر، وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى الى ترك مأمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة: نُهي عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه).[1]

(١) مجموع الفتاوى ١٠/١٧.

فـافهم هذا يا من تتمنى أن يغير الله الأحوال بلا عمل منك ومن أمثالك.

وحولك من يعمل ويناديك..

أيها المشدود في تيـــه الأماني
خفف الآهات دع عـنك التواني
لا تبال إن بغت كف الــزمان
واعتصـم بالله ذا أسمى وأفضـل
أنت تـدري أيها الحـيران عنّا
كيف فوق الشـمس أزماناً حللنا
أيها المذهـول لا تيأس فإنا:
لبنـاء الأمـة العـصماء نعـمل[٢]

فكن مع العاملين أيها المبهور.

إنك إن كنت تعرف إنا خير من يعمل، وأطهر من يتصدى، فلمَ تهرب منا؟

(إن الحسرة والتألم وتصعيد الزفرات ليس سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل - بل لا تخدشها -، وهي لا بأس بها لكنها تنقلب الى أمر بالغ الخطورة اذا لم يعقبها عمل إيجابي مثمر، إذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة، ومن ثم الركون اليها، وعلى أحسن الفروض: استمرار هذه النقمة، ولكن بشكل جامد لا حياة فيه يؤدي الى شلل الحركة. وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع).[٣]

وانما الصواب في كل حين أن تسلك طريق الهمة، وهو الطريق الذي وصفه قدوة العراق آخر الزمن العباسي، الشيخ عبد القادر الگيلاني

(٢) لمحمود آل جعفر في حنين الى الفجر/ ١٤٠

(٣) لصلاح الدين مجيد في مجلة التربية الاسلامية ٥/ ٥٩٤

رحمه الله، فكان ينادي أهل بغداد بصوته الهادر أن:

(سيروا مع الهمم العالية) (٤)

لا تتواروا ولا تنسحبوا، بل سيروا مع الهمم العالية.

ولا زال هذا الطريق هو الطريق المعبّد الوحيد في خارطتنا.

أما الجبن، والانزواء، والتأوه، فصحارى مهلكة؟

وجرّب غيرك الأعوان، وأعطاك النتيجة، فقال:

* لي معينان: همة واعتزام *

لم يجد غيرهما، وخانته بقية الأعوان.

وعونك المخلص ما أوصلك الى اللذة الصادقة في الحياة.

ومغشوس واهم ذاك الذي يظن اللذة فحسب لذة القرب من الزوجة والأولاد والأموال ونيل الترقيات الوظيفية.

وانما السعادة في رضى الله.

وانما اللذة لذة البذل والفداء.

ونداء الشيخ عبد القادر يأتينا عبر القرون:

(أنتم غفل عما القوم فيه، تواصلون العَناء في الكد على النفوس التي هي عدوتكم. ترضون أزواجكم بسخط ربكم عز وجل. كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق عز وجل).

وما بغير البذل ينطق قاموسنا، (لكن يغلط الجفاة في مسمى الحياة، حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل وقد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الانسان، فمن لم تكن عنده لذة الا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام، فذلك ممن يُنادى عليه من مكان بعيد. ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء

---

(٤) الفتح الرباني/٢٩٨

والأوطان والأموال والاخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحل بهذا منشرح الصدر به، يطيب له هجر ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة. ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم الى الموت فرحاً مسروراً).[5]

هذا ما نعرفه من شأن الداعية، لا يكون كامل العبودية لله حتى يصل الى مثل حال ابراهيم عليه السلام، لما استسلم وأطاع ووضع السكين على حلق ابنه..

وبهذا وصفه إقبال ..

ليس يدنو الخوف منه أبدا
ليس غير الله يخشى أحدا
لحنه في القلب ناراً اشعلا
من قيود الزوج والولد خلا
معرض عما سوى الله الأحد
يضع السكين في حلق الولد[6]

إن واجبات المسلم إزاء محاولة استئناف الحياة الإسلامية وإرجاع الإسلام الى الهيمنة من بعد الحادث الهائل في تنحيته هي واجبات واضحة بينة، وأكثر من نراه من المسلمين المتحسرين أصحاب الأماني المتأوهين (يكون عالماً بها، ولا تنهض همته اليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوساً، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منكوساً، قد أسام نفسه مع الأنعام، راعياً مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رفع له علم فشمر اليه، وبورك

(٥) مفتاح دار السعادة ١/٣٥
(٦) ديوان الاسرار والرموز /٣٩

له في تفرده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة الى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء الا ابن سبيل يرافقه في سبيله).(٧)

فكذلك البرهان الذي يعطيه المسلم علامة لصدقه.

وكذلك حقاً تفعل الأشواق حين تصدق.

إن صاحبها حينئذ يأبى الا الهجرة والانضمام الى القافلة.

ويذر كل رفيق يثبطه ويزين له ايثار السلامة، إلا داعية يبثه همه، ويتعاون معه على السير في طريق الجهاد، ويعلمه علم البذل وفقه الدعوة والتبشير.

فحيهلا إن كنت ذا هـــمة فـــقد

حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا

ولا تنتــظر بالسير رفـــقة قاعـــد

ودعه، فإن العزم يكفـــيك حاملا

فينتفض، ويهجر كل قاعد، ويهاجر مع المهاجرين الى الله..

ويخطب به ابن تيمية فيقول، ويصف له الطريق واضحاً:

(الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب).(٨)

فيطرح أغلال الشهوات وحب الأموال عن قلبه ويصبح حراً. ويعود يأبى المنخفض الخبت، ويرفض أن تواريه الوديان، ويبتغي المرتفع العالي.

ومن أراد ذلك ارتقى سلم الارتفاع والسمو: الجهاد، وفقه الدعوة.

قـال تعـالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العِـلْمَ درجات﴾.

(وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع. أحدها: هذا. والثاني قوله: ﴿انما المؤمنون الذين إذا ذُكـرَ اللّهُ وَجِلَتْ قلُـوبُـهم وإذا تُـليت عليـهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتـوكلون.

---

(٧) مفتاح دار السعادة ١/٤٦

(٨) مجموع الفتاوى ١٨٦/١٠

الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾. والثالث قوله تعالى: ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾. والرابع قوله تعالى: ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة﴾.

فهذه أربعة مواضع، في ثلاثة منها: الرفعة بالدرجات لأهل الايمان، الذي هو العلم النافع والعمل الصالح. والرابع: الرفعة بالجهاد، فعادت رفعة الدرجات كلها الى العلم والجهاد).[٩]

ولا تصل الى هذا العلم وهذا الجهاد إلا بهمة، ومن ثم كانت الهمة باب الدخول، فمن امتلكها لان له كل صعب، واستطاع أن يعيد هذه الأمة الى الحياة مهما ضمرت فيها معاني الإيمان، كما قال إقبال:

هِمم الأحرار تحيي الرمما

نفخة الأبرار تحيي الأُمما

وبالمقابل جعل رحمه الله:

* كل داء في سقوط الهمم *

وكذلك أمر المسلمين حين ضاق اليوم، لا يفرجه ويوسعه إلا أصحاب الهمم العالية فحسب.

ولذلك كان من تعاليم الامام حسن البنا:

(أن تستصحب دائماً نية الجهاد وحب الشهادة، وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد). (وأن تعتبر نفسك دائماً جندياً في الثكنة تنتظر الأمر).[١٠]

وإنه لمعنى يفقهه من ذاق العلو، محجوب عمن يطلب السلامة.

قلت للصقر وهو في الجو عال:

إهبط الأرض فالهواء جديب

(٩) مفتاح دار السعادة ١/ ٥٠

(١٠) رسالة التعاليم، المجموعة / ٢٤

قال لي الصقر: في جناحي وعزمي
وعنان السـماء مرعى خصـيب [11]

وهذا المرعى لا شك يجهله الأرضيون...!

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الأرض؟؟﴾

(إنها ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض. ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع. ثقلة الدَّعة والراحة والاستقرار. ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب. ثقلة اللحم والدم والتراب. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس الفاظه: اثاقلتم - وهذه قراءة حفص، وهي أبلغ تصويراً من القراءات التي ورد فيها: تثاقلتم - وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل، ويلقيها بمعنى الفاظه "اثاقلتم الى الأرض" ومالها من جاذبية تشد الى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الاشواق.

إنها النفرة للجهاد في سبيل انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة، وتطلع الى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود:

"أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل"... وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله إلا وفي هذه العقيدة دخل، وفي ايمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول ﷺ:

"من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شُعبة من شُعَب

---

(11) لعبد الوهاب عزام في ديوان المثاني / ٣٥

النّفاق". فالنفاق - وهو دَخَل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال- هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله، "وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل".

ومن ثم يتوجه الخطاب اليهم بالتهديد:

"إلا تنفروا يُعذِّبْكُمْ عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيء قدير".

والخطاب لقوم معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء).[١٢]

لذلك رأى المودودي ضرورة الصراحة، فحسم أمر الهمة بألفاظ يظن القارئ أنها خشنة، فقال:

(من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية والقلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية، جاهدون في سبيلها ليل نهار، ولا يقبلون في السوق الا على من يساومهم بأثمان مرتفعة، وما بلغوا من تعلقهم بالدعوة الى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم، بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم. فإذا كنتم ترجون، معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية، أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غاياتهم الباطلة، فما ذلك الا حماقة).[١٣]

(١٢) في ظلال القرآن ١٠/٢٢٣

(١٣) تذكرة دعاة الاسلام/٥٦

وبعد . . .

فإنا لا زلنا نعطيك جمهرة من أبلغ القول وأحسن الكلام، وقد قال الزاهد الثقة يحيى بن معاذ رحمه الله أن (الكلام الحسن حسن، وأحسن من الكلام: معناه، وأحسن من معناه: استعماله) . . . فقم الى استعماله يرحمك الله:

وخـــل الهـوينا للضعيف ولا تكن

نؤوما فان الحـــزم ليـــس بنائـــم

وهذه كتيبة الحق قد دنت منك في سيرها بنشيد هادر:

قد نهضنا للمــــــعالي ومضى عنا الجمود

ورسمناها خطــــــى للعز والنصـــر تقود

فتقدم يا أخا الإسلام قد ســــــار الجنود

ومضوا للمجد إن المجـــــد بالعـزم يعود (١٤)

وكأنك قد أصغيت، واستدركت قعودك، وعفت مساعيك لاحراز الترقيات الدنيوية جانباً، وآمنت بأنها آتية اليك دونما جهد وحرص.

ثم كأنك أخذت مكانك في الكتيبة السائرة، وبدأت تنشدهم مبايعاً:

مهـــما عتا الأقــــــزام والأعــــبد

ولوحوا بالقـــــــيد أو هـــــددوا

عن نصـــرة الإســــلام هـل أقعـــد؟

لا، ســـوف أبقى دائـــــماً أنـــشد

بفـــجره لابد يأتـــــي الغـــــد (١٥)

---

(١٤) (١٥) لوليد في أغاني المعركة /١٠٦/٧٦

١١ العَبْد الحُر

إن مسلماً نودي بالسير مع الهمم العالية، فانتفض، وأفلت من قيود الأرض، وحلق بجناح العزة: هو مسلم حري به أن يتم انتفاضته بخطوة تميز واضحة.

أو كما قال سيِّد رحمه الله: إن (أولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم، كيما يظل المنهج نظيفاً سليماً، الى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى).[1]

وهذا يعني قيام مفاصلة شعورية وفكرية في ضمير المسلم، ينفصل فيها التحديد الإسلامي الواضح للمعاني الثلاثة المهمة المكونة لكل منهج، وهي: معنى الوطن، ومعنى الحاكم، ومعنى الدستور، عن الاطلاقات الجاهلية في تفسيرها، وعما بعد الاطلاق من اختلاف اجتهادات العقول.

فالأمة الاسلامية قد حدد الله تعالى مقوماتها، وجعل:

(الجنسية فيها هي العقيدة.

والوطن فيها هو دار الإسلام.

والحاكم فيها هو الله.

والدستور فيها هو القرآن.

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١

على قلوب أصحاب الدعوة الى الله، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوضار التصورات الجاهلية الدخيلة، ولا تتسرب اليه صور الشرك الخفية. الشرك بالأرض، والشرك بالجنس، والشرك بالقوم، والشرك بالنسب، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة). (٢)

وحملة الإسلام انما ينطلقون بهذا المفهوم الإسلامي الواضح ويعلنونه، دونما ملاطفة لأفكار الكفر الأرضية، ولا مهادنة، ولا محاولة استرضاء، وإنه لأمر جازم من الله لهم أن:

"ادعو الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون".

(ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله، وأن يدعوه وحده دون سواه. ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لاطفوهم أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشتى الاساليب.

فليمض المؤمنون في وجهتهم، يدعون ربهم وحده، ويخلصون له عقيدتهم، ويصفون له قلوبهم، ولا عليهم رضي الكافرون أم سخطوا، وما هم يوماً براضين!). (٣)

فما دامت هذه النتيجة حتمية، وأن الكافرين لن يرضوا عن المؤمنين، فليسلك الدعاة اذن ما يناسبها من مقدمات ترد على تمرد الكفر ورفضه الإيمان.

ولن يكون هذا الرد غير التميز، والانفصال عنه.

طالما أنه ليس هناك لقاء، فإن المنطق يقتضي الانفصال اذن، كما فاصَلَ النبي ﷺ كفار قريش في العهد المكي، وكما فاصل كل القبائل بعد الهجرة.

ولم تكن تلك المفاصلة النبوية الكريمة مجرد اضطرار لجأ اليه في حقبة تاريخية تبدو لنا آخذة دورها في تسلسل تاريخ الدعوة النبوية، وانما كانت

---

(٢) معالم في الطريق / ١٤٦

(٣) في ظلال القرآن ٢٤/ ٦٠

حقيقة إيمانية ودلالة نعمة ربانية، من شأنها أن يلتفت لها المؤمنون. وتلمس هذا في أن رسول الله ﷺ كان يذكرهم بها، ويتخذها عاملاً تربوياً للذين معه، فيقول لما صلى بهم يوماً صلاة العشاء قريباً من نصف الليل:

(أبشروا. إن من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يصلي هذه الساعة غيركم) (٤)، وذلك (قبل أن يفشو الإسلام في الناس) (٥)، كما يقول الراوي.

إنه جعلها بشرى ونعمة ربانية، وكذلك تربّى نفوس المؤمنين على معاني الاستعلاء، وتوكيد إلحاحهم في تحدي الجاهلية كلها مهما فشت وعمّت وانتشرت وكثر أصحابها، ومهما قل عدد المسلمين وانحصروا في دويرة صغيرة، كما كانوا في دويرة المدينة ومن حولهم هذه الجزيرة العربية الواسعة الاطراف، الكثيرة القبائل.

والمس عظم أثر هذه التربية، وتحولها إصراراً وثباتاً في الدين، وتجديد عزم على المضي، حين يقول من سمع هذه البشرى: (فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله ﷺ).

فتصور هذه الدويرة الإسلامية المتميزة في الجزيرة الكافرة.

كانت هناك طليعة إسلامية (تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة) (٦). وهي في الحقيقة استمرار للمفاصلة التي كانت في العهد المكي، فظهرت في المدينة بصورة كاملة واضحة. وما كانت نفوس المسلمين لتصبر في المدينة على لوازم هذه المفاصلة لو لم تكن قد ربيت قبل الهجرة تربية صلبة عميقة على أولياتها ومقدماتها، فيومها:

(في مكة، لم تكن للإسلام شريعة ولا دولة، ولكن الذين كانوا

---

(٤) صحيح مسلم ٢/ ١١٧
(٥) صحيح مسلم ٢/ ١١٥
(٦) معالم في الطريق / ٩

ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة، كما كانوا ينسلخون من القيادة الجاهلية ويتمردون عليها، وينزعون ولاءهم من الأُسرة والعشيرة والقبيلة والقيادة الجاهلية بمجرد نطقهم بالشهادتين). [٧]

كان (**الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين، هو الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه، والولاء لقيادة الدعوة الاسلامية وللعصبة المسلمة التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع**). [٨]

فلما تجلى هذا التميز بصورة أوضح في المدينة، صار المجتمع الإسلامي مناراً واضحاً في تلك الصحراء، يأوي اليه الهائم والمتشكك، ومن يحتدم في قلبه الصراع بين الإيمان والكفر الموروث.

فلما اتسع المجتمع الإسلامي، وانتصر، ودانت كل الجزيرة بدين الله: استمرت هذه الحاجة الى مفاصلة بقايا الجاهلية، المتمثلة ببقايا النفاق واتباع الشهوات.

وهي مفاصلة ثانية، واجبة أيضاً، فكما أن المفاصلة الأولى أفادت في إيجاد عزة الإيمان في نفوس المفاصلين، وفي جعل المدينة مناراً يأوي اليه الحائر، فإن المفاصلة الثانية كانت ضرورية للحفاظ على نقاوة جهاز دولة الإسلام، المحافظ على سمات حكمه وفقهه وتربيته وفتوحه.

ومن هنا دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى هذه المفاصلة الثانية بعبارة جامعة رائعة، فقال:

(إن لله عبادا يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره). [٩]

وقد استعمل كلمة الهجر للدلالة على المفاصلة التي نعنيها.

وهذا يعني أن عنصر النفاق واتباع الشهوات كلما زاد في المجتمع،

---

(٧) (٨) في ظلال القرآن ٩/ ٢٨٠

(٩) كتاب الخراج لأبي يوسف / ١٣

زادت هذه الحاجة الى هذا النوع الثاني من المفاصلة، بعملية طردية، ليبقى الباطل باطلاً مشاراً إليه بإصبع الإتهام، ولئلا يحيله التقادم الى حق موهوم في ذهن الذين لا يعون، فينطلي زوره، وينسى الناس اعوجاجه، ولئلا تَستَسيغُه النفوس من بعد، حين يطول الأمد.

ولذلك فإن الدعوة الإسلامية اليوم لابد لها إزاء زيادة النفاق والفسق واتباع الشهوات في المجتمع الحاضر من هذه المفاصلة، ومن هذا التميز، بشكل واضح صريح، لتبقى الصورة الإسلامية جلية واضحة بدورها، يمكن أن ينظر اليها من يبتغي النظر اليها، ممن تحفزهم كلمات الدعاة لمحاولة اكتشاف أبعاد هذه الصورة، والتفتيش عنها، وتلمُّس مثل تطبيقي لها.

والحقيقة أنه وإن افتقد الدعاة في هذا القرن صورة حكم إسلامي يصلح مثلاً لتطبيق الإسلام، إلا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى في بضعة أشخاص من الدعاة، تتضح فيهم معاني الإسلامي، ويكتسبون من هيبته، ويبلغون الذروة في الإيمان والتجرد وتطبيق السنة النبوية الشريفة.

وهذا هو معنى (القدوة) في صورتها البسيطة.

ان وجود (القدوة الإسلامية) يعني وجود شخص يدرك الناظر اليه أنه مستقل في فكرته وعقيدته، وسكناته وحركاته، عما حوله وعمن حوله، منفصل عنهم، تميزه الأبصار قبل المعاملة، بما تعلو وجهه من معالم السكينة والهيبة والحزم التي شاء الله أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره، فيعوض بذلك عن صورة الحكم الإسلامي المفتقد، ويكون بديلاً لها، وبرهاناً على أن الإسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الإنسانية الرفيعة، أو بالأحرى: يكون برهانا على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الإسلام.

وأبو القاسم الجنيد رحمه الله يعبر عن هذا الانفصال للقدوة الاسلامية بعبارة (الحرية عما سوى الله)، أي ليس بينه وبين ما سوى الله رابط أو قيد أو نسب أو ميل ورغبة، بل هي الحرية بمدلولها الذي يفهمه كل حر،

فيقول:

(لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى حراً). (١٠)

ويعبر مرة أخرى عن هذا الانفصال بأنه (عبودية الأحرار) أو (حر العبيد)، فَيُسَطِّر سطراً بليغاً رفيعاً يغني عن عشرة مجلدات، ويقول:

(إنك لا تصل الى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية).

فلأن الإسلام كله عبودية لله تعالى، فإن العبد التام العبودية الذي سماه الجنيد هو وحده الحر في هذا الوجود دون غيره من أسارى الشهوات واجتهادات العقول القاصرة، وهذا التعبير الجميل ورثه الجنيد عن أفضل الزهاد العباد: الفضيل بن عياض رحمه الله، إذ أبرز الفضيل بمقابل الحرية عما سوى الله: واجب المسلم في تجريد الربانية له واطراح كل ربانية لأحد من الخلق يريد أن يفرضها عليه بثمن مادي، أو بالقسر والإكراه، فيقول الفضيل:

(والله، ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية). (١١)

فالمسلم يفرد الله بالعبادة، وإفراده بالعبادة يقتضي أن يعلن بصراحة ووضوح براءته مما يعبد الغير، ومما يشرعون لأنفسهم، ويجهر بذلك مفاصلاً، كما فاصل نبي الله هود عليه السلام قومه بقوله:

"إني أُشهد الله، واشهدوا: أني بريء مما تشركون من دونه، فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون. إني توكلت على الله ربي وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم. فان تولوا فقد أبلغتكم ما أُرسلت به اليكم، ويستخلف ربي قوماً غيركم، ولا تضرونه شيئاً، إن ربي على كل شيء حفيظ".

(انها انتفاضة التبرؤ من القوم - وقد كان منهم وكان أخاهم - وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقاً.

(١٠) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٩٨/١٠

(١١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٩٩/١٠

وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة، وقد انبتّت بينهما وشيجة العقيدة.

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوهم، كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم.

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه، ومع ثقة الإيمان واطمئنانه!

وإن الانسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوماً غلاظاً شداداً حمقى، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي، ويروا في الدعوة الى الله الواحد هذيانا من أثر المس! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتم المفتراة هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثم يهيج ضَراوتهم بالتحدي لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم.

إن الانسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب.

إنه الايمان، والثقة، والاطمئنان. الإيمان بالله، والثقة بوعده، والاطمئنان الى نصره. الإيمان الذي يخالط القلب، فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة، لأنها ملء يديه، وملء قلبه الذي بين جنبيه، وليست وعداً للمستقبل في ضمير الغيب، إنما هي حاضر تتملاه العين والقلب).(١٢)

"ان ربي على صراط مستقيم".

(فهي القوة والاستقامة والتصميم.

وفي هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدي. إنها ترسم صورة الحقيقة التي يجدها نبي الله هود عليه السلام في نفسه من ربه. إنه يجد هذه الحقيقة واضحة. إن ربه ورب الخلائق

---

(١٢) في ظلال القرآن ١٢/٩٧، ٩٨

قوي قاهر:

"ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها"، وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التي يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهراً، فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها، وهي لا تسلط عليه- إن سلطت- إلا بإذن ربه؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه؟

إن هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة في نفسه، لا تدع في قلبه مجالا للشك في عاقبة أمره، ولا مجالاً للتردد عن المضي في طريقه.

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب الصفوة المؤمنة أبداً).(١٣)

وقد فقه الامام البنا رحمه الله هذه النظرية في المفاصلة، فنادى بوجوب تربية النشء وفق معانيها، وأوضح أن مستقبل الإسلام إنما يعتمد على (هذا النشء الجديد، فأحسنوا دعوته، وجدُّوا في تكوينه، وعلموه استقلال النفس والقلب واستقلال الفكر والعقل، واسقلال الجهاد والعمل واملأوا روحه الوثَّابة بجلال الإسلام وروعة القرآن، وجندوه تحت لواء محمد ورايته، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره).(١٤)

فهو قد عبر عن المفاصلة بالاستقلال، كما عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنها بالهجر.

فاستقلال النفس والقلب هو المفاصلة الشعورية في الضمير، والعزة، والاستعلاء.

واستقلال الفكر هو عدم خلط الشريعة بالتصورات الأرضية المبتدعة التي أضلت الأحزاب.

واستقلال العمل هو التميز في الصف، وترك الأحلاف.

وكما أنها مهمة هؤلاء الدعاة في تربية النشء، فإنها مهمتهم في وجوب الانتباه لنفوسهم، والثبات على هذه المفاصلة.

---

(١٣)المصدر السابق، والصفحات ذاتها.

(١٤) تحت راية القرآن، المجموعة /٣١٩، ٣٢١.

أو كما قال الامام:

(لا تصغروا في أنفسكم، فتقيسوا أنفسكم بغيركم، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله، ومنهاجها من سنة رسوله، بغيرها من الدعوات التي تخلقها الضرورات، وتذهب بها الحوادث والأيام)[١٥].

ومن مكملات ذلك وضرورياته حفظ صفاء الإبتداء ونقاوته، وكما يجب على الداعية أن يحفظ لمن يدعوهم الهمّة، ويسيرهم مع الهمم العالية، فإن عليه أن يحفظ لهم صفاء الإبتداء، فإن الأيام الأولى للسير في طريق الدعوة تحسم مدى الصفاء مثلما تحسم منزلة الهمة.

إن من يفتح عينه على المفاهيم الإسلامية النقية المستمدة من القرآن والسُنَّة فحسب غير المشوبة بترهات غير إسلامية فإنه يبدأ وينشأ ويشب ويشيب ويموت على هذه المفاهيم، ومن سقي المخاليط ذات الشوائب صعبت عليه التنقية بعد.

ولقد وعى أبو القاسم ابراهيم بن محمد النصر آباذي المتوفى سنة٣٦٧هـ هذا المعنى أروع الوعي، فقال:

(ما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الإبتداء، فإن فساد الإبتداء يؤثر في الإنتهاء).

فأحسن البداية وأتقنها يا داعية الإسلام .

(١٥) المرجع السابق، والصفحات ذاتها.

قصص من لهو الدعاة

١٢

ما كان لأهل الحركة الإسلامية ومن حولهم من ناشئة الإبتداء أن يتخلفوا عن السير نحو أفراح الآخرة، ولا يرغبوا بأنفسهم عن حاجات الدعوة، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصَب، ولا غبار في سبيل الله، ولا يتكلمون كلمة تغيظ الأحزاب الأرضية، ولا ينالون من ملحد نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

ولا ينفقون نفقة من التعب صغيرة أو من الهول كبيرة، ولا يجوبون محلة أو مدرسة أو جامعة أو مصنعاً إلا كُتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون.

وكيف يلتذ داعية براحة وهم قد لقّنوه من أول يوم أن ينشد:

في ضميري دائماً صوت النبي
آمراً: جاهد، وكابد، واتعبِ

صائحاً: غالب، وطالب، وأداب
صارخاً: كن أبداً حراً أبي

وكيف يميل الى استرخاء، وأصحابه يهتفون:

نَبْني، ولا نتكل
نفني، ولا ننخذل

لنا يد، والعمل
لنا غد، والأمل؟

إن حرية الداعية، والأمل الذي يستيقنه: يدفعان به دفعاً الى البذل السخي.

□ علو في الحياة ...

حرية .. وأمل.

حرية تكسر قيود الشهوات.

وأمل بالأجر، وثقة بالنصر.

كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في ميزان التصارع العقائدي، كانتا دوماً في تاريخ التوحيد الطويل، تأخذان التعب من أجيال الدعاة من النبيين، والصّديقين، والراشدين، والتابعين، ومن لحقهم بإحسان على مر القرون، فكلهم بالتعب كانوا يفرحون، يأبون إلا العلو في الحياة، ونحن إن شاء الله بهم لمقتدون.

كان تعبهم يتمثل أحياناً بحركة يومية دائبة في النّذارة والتبشير، والتجميع والتبصير، أو سهراً على رعاية مصالح المسلمين.

ويتمثل أحياناً في انكباب على التعلم واجتياز المفاوز لحيازة حديث أو كلمات فقه.

ويتجسد في أخرى قتالاً، وتحفزاً دائماً لجهاد وعلو موت.

وفي أخرى إشغالاً للفكر في التخطيط.

فإن أخذوا راحة، واستلقوا على ظهورهم: لبث ذهنهم يصطاد الخاطر.

وكل ذلك حكى التاريخ، ليتعلم الدعاة اليوم.

□ نطق بالليل والنهار

فأول من يطالعنا: الأنبياء عليهم السلام. كان لسانهم ناطقاً بالليل والنهار، والإعلان والإسرار.

قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام:

"قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً"

ثم قال:

"ثم إني دعوتهم جِهاراً، ثم إنّي أَعْلَنْتُ لهم وأسْرَرْتُ لهم إسراراً".

❑ ونطق أثناء خطوات الهجرة

(والواقع أن الداعي إذا كان صادقاً في دعوته منشغلاً بها لا يفكر إلا فيها ولا يتحرك إلا من أجلها ولا يبخل عليها بشيء من جهده ووقته لم يشغله عنها شاغل أبداً حتى في أحرج الساعات، وأضيق الحالات، وأدق الظروف، وهكذا كان رسولنا محمد ﷺ، فعندما هاجر الى المدينة ومعه أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه لقي في طريقه بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. وهذا يدل أنه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن الدعوة الى الله حتى وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة والقوم يطلبونه). [1]

❑ ونطق في السجن

(ويوسف عليه السلام عندما دخل السجن مظلوماً لم يشغله السجن وضيقه عن واجب الدعوة الى الله ولهذا فقد اغتنم سؤال السجينين عن رؤيا رأياها فقال لهما قبل أن يجيبهما ما أخبرنا الله به:

"يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟"). [2]

❑ الرشد يمنع النوم

وقاربهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه حتى قال عند وفاته:

(والله ما نمت فحلمت، ولا توهمت فسهوت، واني السبيل ما زغت. [3]

يعني أنه قد شغلته حروب الردة والفتوح وأرهقه إرساء جهاز الدولة،

---

(١) أصول الدعوة / ٢٨٤

(٢) المصدر السابق، والصفحة ذاتها.

(٣) الخراج لأبي يوسف/ ١١

حتى أنه ما كان ليستغرق في نومه ليتاح له أن يحلم، وظل يزداد بعد النبي ﷺ في الصديقية ليهبه الله تعالى يقظة أثناء هذا التعب تبعد عنه الوهم والسهو.

❑ الترابي ...!

ويترجم عبد الله بن عباس رضي الله عنه انغماسه في صورة جمع بين التواضع، والصبر على مشقة التعلم وجمع الحديث، حتى ان الريح لتسفي عليه التراب، يرجو بذلك أن يستنشق نسمات الجنة، ويجتاز الصراط بلا حساب.

واسمعه يروي ما كان منه ويقول:

(أقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، تسفي الريح عليّ التراب، فيخرج فيقول لي: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ الا ارسلت إليّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث). (٤)

ولو شاء أن يوقظوه لأيقظوه له مع الفرح، ولكن الهمم العالية تطرب لصفير الريح ولفحات التراب.

❑ هواية رفع الاثقال

والداعية اللبيب يسابق أصحابه لحمل كل ثقيل من الأمور، فيكون يوم الجمع صاحب الميزان الثقيل، كما تسابق النخعيون يوم معركة القادسية.

قال أحد الصحابة منهم:

(أتينا القادسية، فقتل منا كثير، ومن سائر الناس قليل، فسئل عمر عن ذلك فقال:

إن النخع ولوا عظم الأمر وحدهم). (٥)

---

(٤) طبقات ابن سعد ٢/٣٦٨

(٥) الإصابة ١/٢٨

وما كان أحد ممن حضر القادسية إلا وأبلى، ولكن الدعاة الى الله لهم هواية التسابق في رفع الأثقال.

❑ حصن التربية الأسدية

والذروة يعلوها التابعي العابد الفقيه المحدث الجليل أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي، نتاج تربية الأربعة الراشدين وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، فانه عاف التجارات والبيوت وبنى له في الكوفة حصناً صغيراً يسعه هو وفرسه وسلاحه فقط، وبقي طول عمره متحفزاً للجهاد، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس.(٦)

تجرد حق التجرد، فأنتج حق الانتاج ذرية تجرد تتبعه، يعلم الدعاة بذلك طريق إنتاج الرجال باستخدام وسائل الايضاح البصرية المجسدة.

أنتج أبو وائل أمثال: سليمان الأعمش، ومنصور بن المعتمر، وحصين ابن عبد الرحمن، وعمرو بن مرة، وغيرهم من فحول المُحدِّثين.

إن من يفهم التربية يظن أن بناء هذا الحصن من التكلف والرياء، وما هو كذلك.

❑ ذَهَبَ الفراغ ...!

ويموت شقيق الأسدي مع نهاية قرن الخير الأول، فيبادر الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز الى ضرب الأمثال.

تصفه زوجه فاطمة بنت عبد الملك فتقول:

(كان قد فرّغ للمسلمين نفسَه، ولأُمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه: وصل يومه بليلته).(٧)

يضرب المثل بذلك لداعية الإسلام إن أراد أن يصدق دعوته، ويؤدي الأمانة.

صدق الداعية: أن يجدد أطوار عمر فيفرغ نفسه للمسلمين، فلا تجد

---

(٦) كتاب الثقات لابن حبان/١٠٨

(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم/ ١٤٦

له حركة دنيوية إلا بمقدار ما توجبه ضروريات إطعام عياله. ويفرغ ذهنه، فليس فيه الا تفكر بمصالح الدعوة.

ويعترض أصدقاءٌ قدماء لعمر، من أصدقائه قبل الخلافة يوم كان فارغاً، يودون أن تكون لهم معه جلسة يعيدون فيها الذكريات، فيقولون:

(لو تفرغت لنا)

فيقول:

(وأين الفراغ؟ ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله). [8]

يلقنها لمن يدخل الدعوة بعده إذا دعاهم رفاق الأمس الى قتل الأوقات.

☐ موفق يجوب بحقيبة العلم راجلا

ويستمر تلامذة أحمد بن حنبل، واتباع مذهبه من بعده، يضعون وسائل الايضاح البصرية في الاستخدام التربوي، فإنهم كما وصفهم الفقيه النحوي ابن عقيل:

(غلب عليهم الجدُّ، وقلَّ عندهم الهَزْلُ). [9]

فمن تلامذته: الحافظ الإمامَ الفقيه الزاهد المُحدِّث:

إسحق بن منصور المعروف بالكوسج، شيخ البخاري ومسلم وغيرهما. كان يسكن نيسابور بخراسان، فرحل الى بغداد ودوّن عن أحمد بن حنبل مسائل في الفقه كثيرة، ورجع الى نيسابور، ثم انه:

(بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن بعض تلك المسائل، فحملها في جراب على كتفه، وسافر راجلاً إلى أحمد، ثم عرض خطوط أحمد على كل مسألة استفتاه عنها فأقرَّ له بها وأعجب به) [10].

وأحدنا الآن يجلس على أريكته وبجنبه مسند أحمد مطبوعاً محققاً

---

(٨) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٩٧

(٩) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ١٥٢

(١٠) تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/ ٥٢٤

مجلداً مذهباً، يتكاسل أن ينظر فيه.

❑ الحنابلة يحفظون السمت

ويرسم ابن عقيل، النحوي الفقيه الحنبلي، صورة الداعية الذي لا تكون خطراته وسبحات فكره - بل أحلامه إذ ينام - إلا في الدعوة، ويجلي ذلك بقوله:

(إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة: أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح).[11]

فانظر، كم ساعة من نهارك وليلك تضيع سدى؟

وخلفه الشيخ الزاهد الفقيه محمد بن أحمد الدباهي قالوا:

(لازم العبادة، والعمل الدائم والجد، واستغرق أوقاته في الخير.. صَلّبَ في الدين، وينصح الإخوان، وإذا رآه إنسان: عرف الجِدّ في وجهه).[12]

وهكذا يجب أن تكون دائماً علامة الدعاة، سيماهم في الجِدّ ظاهرة في وجوهم، لا يُخْطِئُها النظر.

ليس لهم نصيب من الهزل والضحك والبطالة.

❑ أصحاب الإمام البنا يجددون

وجدد جيل هذا القرن من الدعاة في مصر تلك الصور الرائعة القديمة، ليبرهنوا أنّ الإسلام الذي أنتج أولئك لا يزال حياً.

يصف الإمام حسن البنا أصحابه فيقول:

(قد سهرت عيونهم والناس نيام، وشُغلت نفوسهم والخليون هجع، وأكبّ أحدهم على مكتبه من العصر الى منتصف الليل، عاملا مجتهداً،

---

(١١) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٤٦، ٢/٣٦١

(١٢) المصدر السابق، والصفحات ذاتها.

ومفكراً مجداً، ولا يزال كذلك طول شهره، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده: مورداً لجماعته، ونفقته: نفقة لدعوته، وماله: خادماً لغايته، ولسان حاله يقول لبني قومه الغافلين عن تضحيته:

«لا أسالكم عليه أجراً، إن أجري إلا على الله». (١٣)

❑ وعلو في الممات ...!

وكما في مصر، كان من رعيل العراق الأول: أبو صفوان الدباغ، صاحب رسالة (مع الناشئة)، الرسالة الصغيرة البسيطة جداً، الطريفة جداً.

حدثني الثقة من أقرانه، قال:

(كان مريضاً بالسرطان، واشتد مرضه سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وألف، فرقد في المستشفى أياماً، وكأنه أحس بلحظات حياته الأخيرة، فطلب مواجهة قائد الدعوة آنذاك، فجاءه ومعه بعض الدعاة، فيهم راوي القصة، فأعلمهم بقرب موته، وشهد أن لا إله إلا الله، وقرأ شيئاً من القرآن، وصافح يد القائد، وأعلن تجديد بيعته وثباته على هذه الدعوة، وحمّلهم السلام الى من كان من الدعاة آنذاك والى من سيلتحق بعد، ثم أعاد الشهادة، ومات من فوره، بعد تجديد بيعته بقليل).

رحمه الله.

فتأمل.

هذه منقبة لا يرزقها إلا من كان توجهه صادقاً في حياته.

وتأمل علو همته. كأنه في قاعة مطار يودع أو على رصيف محطة قطار.

أخ لك سابق غادر الحياة ولعلك لم تولد بعد، يحيّيك ويبلغك السلام، ويطلب منك الثبات على هذه الدعوة التي جربها في صحته

---

(١٣) الى أي شيء ندعو الناس، المجموعة / ١٢٩.

ونشاطه، وجربها في آخر لحظات حياته، فوجد لذة السير الى من أنعم بها على عباده.

إن في ذلك لعبرة تغْني اللبيب عن كثير من الكلام المنمق، والبلاغة المتكلفة.

حقاً ان من الهمم مراتب، ولا تعلو همة في نهايتها وعند موتها إلا إذا علت في بدايتها.

وقائع وقصص يمرُّ بها الداعية يأخذ منها الدروس والعبر، والهُمام من يقول: اللهم اجمعنا وإيَّاهُمْ في دار كرامتك.

وكذلك نقصّ القصص لدعاة الإسلام..... لعلهم يقتدون.

محتويات الكتاب

وانتظر "البوارق"

الذي سيكون إن شاء الله مدونة للحماسة شاملة، مبيناً معاني الجهاد، كمنهج للدعوة وواجب على الداعية، وارتباطه بالفقه، مع استعراض قصص من بطولات العلماء والدعاة، وفصول في الحث على البذل والتضحية، والترغيب في التشمير للخير، وإتعاب الأبدان وإنفاق الأوقات في تجميع الشباب، وتوجيههم للنهي عن المنكر، ومقارعة الظالمين، ومقاومة التطبيع مع يهود.